عبد الله سعد

كُنْتُ نَصْرَانِيًّا..!

كُنْتُ نَصْرَانِيًّا..!

بقلم

عبد الله سعد


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ان الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

﴿ان الدين عند الله الإسلام ... الآية﴾ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ آل عمران.

أما بعد: فقد أنعم الله عليَّ بالهداية فاعتنقت الإسلام لعشر ليال بقين من شهر شعبان من عام ١٣٨٦ هجرية، ومنذ ذلك الحين، وطيلة سبعة عشر عاماً خلت، وأنا أتعرض من حين لآخر للسؤال عن أسباب تحولي إلى الإسلام واعتناقي له.

وللسائل أن يستطلع الأمر فيسأل عن أسباب الاتجاه إلى الإسلام، وخاصة في زماننا هذا ـــ الذي طغت فيه المغريات المادية وأسباب اللهو وعمّت، وانصرف فيه الناس عن ربهم إلا من رحم الله، زمن تحكيم الهوى والمقاييس المادية البحتة ـــ عصر العلم والاكتشافات العلمية المذهلة التي فتنت كثيراً من الناس في دينهم لا لسوء في العلم والاكتشافات العلمية بل بسبب جهلهم. زمان

تراخى فيه المسلمون عن القيام بدورهم الريادي الذي ينبغي لهم القيام به بين الأمم، وتسلط أعداء الإسلام على أكثر ديار المسلمين فعاثوا فيها فساداً، ونشروا فيها الالحاد والاباحية، ووضعوا المناهج الدراسية لابنائها، ووجهّوا إعلامها، فطمسوا حضارة الامة وعزتها في نفوس أبنائها إلا ما شاء الله.

ذلك لانه في عصر تلك سماته يبدو التحول إلى دين الإسلام والالتزام به أمراً غريباً رغم تكرره كل يوم، ورغم أنه الملجأ الطبيعي والمنطقي لكل ذي لب وبصيرة.

فمنذ فجر الإسلام والناس يدخلون في دين الله أفراداً وأفواجاً، وإلى يومنا هذا مازلنا نسمع كل يوم بدخول فرد أو أكثر في الإسلام، وسيظل الناس إلى ما شاء الله يشهدون المزيد من التحول إلى الإسلام.

ومع كل خبر باعتناق مجموعة أو شخص للإسلام يفرح المؤمنون ويحزن المخالفون، ولكل فريق دعواه ومبرراته في موقفه من مثل هذا الخبر المفرح المحزن.

وفرح المؤمن بتحول شخص أو جماعة إلى الإسلام أمر بدهي لان غاية المؤمن أن يحببّ خلق الله بالله فيؤمنوا به ويتبعوا شرعه لينجوا من العذاب ويدخلوا الجنة، ففضل الله واسع لا حد له، ومهما دخل في دين الله من البشر فلن يزاحموا المؤمنين على فضل هم مستحقوه برحمة من الله. ثم لان في ذلك تأكيداً لسلامة مذهبه

واتجاهه ودليلاً اضافياً يستأنس به المؤمن، فيشتد أزره، وتشيع الطمأنينة في نفسه، وهذا بلا شك فيه مصلحة معنوية ظاهرة لا تتحقق بكمالها لغير دعاة الحق.

أما حزن المخالفين، فهو من قبيل حزن ابليس على مفارقة من كان يوماً أحد أوليائه، وابليس لا يحزنه الا اتباع الهدى الصحيح والحق المبين، أما الاتجاه إلى الالحاد أو اتباع أي دين أو مبدأ أو طريقة غير دين التوحيد النقي فلا يحزن ابليس أبداً.

وأصحاب المذاهب الباطلة يجتهدون في الدعوة إلى مذهبهم ويبذلون الغالي والنفيس لنصرته ويزعمون أنهم دعاة الحق، ولكنهم يكذبون ويحتالون كي يستميلوا أقواماً إلى مذهبهم بأساليب وضيعة لينتسب الناس إلى مذهبهم انتساباً فيتفاخروا بذلك أمام الناس لا أكثر .. فالمسألة عندهم مسألة تنافس على الأرقام القياسية في لوائح الاحصائيات، وهي مسألة كم لا كيف من وجهة نظرهم، والغاية عندهم تبرر الوسيلة، في حين أن الله ليس بحاجة إلى كذبهم لتزيين دين لعباده ما أنزل به من سلطان!.

أما داعي الحق ـ صاحب المذهب السليم ـ فيحرص على اعلان مذهبه للناس واجتذابهم اليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجتهد في إظهار الحق وتحبيبه إلى النفوس بالطرق الشريفة الفاضلة، ولا يمكن أن يحتال لذلك بالكذب، لان الله قد حرم الكذب، ولان الدعوة الصحيحة لا تحتاج إلى أساليب دنيئة

لترويجها، وهي ليست مقامرة عرضة للربح أو الخسارة، بل هي ربح دائماً فالمؤمن مأجور في دعوته إلى الحق سواء أدت دعوته ثمارها العاجلة أم لا، ولكنه يفرح بما يجرى الله على يديه من خير. فالدافع له اذن هو القيام بالواجب واحتساب ثوابه عند الله، ثم رأفة بمن يدعوهم لينجوا من العذاب، فهو أمين في مقصده وفي مسلكه، أما ثمرة الدعوة فهي عاجل بشرى للمؤمن وان لم تحصل فأجره محفوظ عند ربه.

ان دافع الداعية المؤمن فيه الرأفة بغير المؤمنين والشفقة عليهم من النار، لذلك فهو يستحثهم على الإيمان ويزينه لهم، فإن استجابوا فبها ونعمت والا فهم الخاسرون.

ومدى استجابة الناس لدعوات الحق يختلف من شخص إلى آخر. فقبول الانسان للحق لا يعتمد على قوة البرهان على قضية الحق بقدر ما يعتمد على استعداد الانسان ورغبته الصادقة في الوصول إلى الحق، وليس أدل على ذلك من أن المعجزات التي أيد الله بها رسله «عليهم صلوات الله وسلامه» كانت من تدبير الخالق الحكيم العليم الخبير، فتلك المعجزات ليست متهمة من حيث قوتها كدليل وبرهان على صدق الرسل، وقد حدثت على مرأى ومسمع من الناس، وعلى الرغم من ذلك فقد كان منهم من صدقها، ومنهم من كذّب بها وجحد.

فكفر الكافرين بدين الله الحق واعراضهم عن الإسلام لا يعني

بحال من الأحوال أن الإسلام تنقصه حجة يقيمها عليهم، بل أن مرد ذلك إلى عيب ونقص فيهم هم أنفسهم لانهم ليس لديهم الرغبة الصادقة في الوصول إلى الحق.

والإسلام هو الدين الحق، وهو المقبول عند الله لا غيره، امتاز بأنه دين التوحيد النقي الذي يعني اخلاص العبادة بكل أشكالها لله وحده. فلا يدعو المؤمن ولا يرجو، ولا يستغيث احداً مطلقاً إلا الله الواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وتلك ميزة الإسلام العظمى.

والإسلام دين الفطرة ــ فطرة الله التي فطر الناس عليها ــ لذا فاصحاب الفطر السليمة هم أوفر حظا من غيرهم في دين الإسلام لانهم مفطورون على التوحيد الخالص وأمامهم فرصة عظيمة لاعتناق الإسلام لانه يناسب الفطرة فلا يجافيها وينظمّها فلا يكبتها وينميها ويرشدها دون إقحامها في متاهات فلسفية عقيمة ولا سفسطات مملّة ممجوجة.

فلا غموض ولا تعقيد في عقيدة المسلم. والإسلام لا يقتضي الإنسان أن يعطل عقله فيسلم بأمور غامضة وغير معقولة كمقدمة وشرط مسبق للإيمان، بل أنه يدعو الناس إلى التأمل والتدبر والتفكر، ويعطيهم الادلة العقلية الواضحة على قضية الإيمان ــ ببساطة ووضوح ويسر ــ دون تفريط في قوة الحجة والمنطق كي يكون إيمانهم صحيحاً راسخاً قوياً.

ولست أدّعي معرفة أسباب عزوف الناس عن قبول دعوة الحق، ولكني ومن خلال تجربتي المحدودة استطعت تلمّس إحدى نقاط الضعف في الإنسان ربما تكون هي أحد الأسباب القوية لاعراض بعض الناس عن الإسلام.

فالإنسان كائن يجمع بين صفتي القوة والضعف، فهو القوي بما فطره الله عليه من صفات القوة من التفكير والابداع والحكمة والتمييز، وهو الضعيف الذي يبدو فيه الضعف في غير ما مناسبة، وقد يضعف في مواقف بحيث يحجب ضعفه صفات القوة فيه إلى حين، وتتعطل استفادته منها حيث لا يجد الشجاعة الكافية للتغلب على لحظات ضعفه البشري التي يتعرض لها.

ولعل من أبرز مواقف الضعف البشري التي يواجهها الإنسان هو مواجهة قرار حاسم يتعلق بما أُلف واعتاد، وما ورث، وما يعتقد فمواجهة الإنسان بما يخطّيء موروثاته ــ سواء الفكرية منها أو الاجتماعية أو السلوكية ــ فيها كثير من التحدي والاتهام لسلامة عقله وعقول آبائه الذين ورثّوه ذلك التراث، فهو لا يحب أن يفاجأ بأنه عاش في وهم أو خطأ فاحش حتى لحظة اعلان القرار الذي يخطيء موروثاته فيغلب عليه حب الثأر لنفسه، ولتراث أسلافه، ولسلامة عقله وعقولهم، فيهب مدافعاً عن موروثاته بمنطق لا يخرج عن كونه جزءاً من تلك الموروثات... على علاتها.

وهذا في رأيي هو حال الكثيرين من غير المسلمين عندما يواجهون بحقيقة دين «الإسلام» فيرفضونه ... الا من رحم الله.

ولكي يتخذ الإنسان قراراً عظيماً باعتناق الإسلام دينا، وذلك يعني التخلي عن مبادىء ومعتقدات ونمط حياة ألفها إلى معتقدات جديدة وحياة لم يألفها... هذا يحتاج إلى حكمة وشجاعة.

فبعد أن عاش زمناً يحسن الظن بأسلافه، يصدّق كل ما يلقّن منهم، ويقلّد ما يفعلونه، وبعد أن ارتبطت مصالحه بهم وطالت عشرته لهم، كان لكلامهم قوة تأثير في نفسه، وتطبع منهم بالمفاهيم الأولية الأساسية عن الحياة، وتكيّف تفكيره على أساسها، وأصبحت تلك المفاهيم قاعدة وميزانا لكل الامور، فسلم بما يعتقد قومه، وألف نمط حياتهم، وتعلم منهم معاداة المخالفين، ووطد العزم على ذلك حتى تكونت غشاوة على عينيه، وعلى أذنيه، وعلى قلبه، فبات لا يستجيب لدعوة الحق لا لسبب صحيح بل لمجرد أنها مخالفة لما تطبع به أو لما ألفه.

وازاحة الغشاوة تحتاج إلى حكمة وصدق نية في طلب الحقيقة، فالإسلام دين الفطرة واعتناقه أقرب ما يكون إلى ذوي الفطر السليمة الصافية.

وسبيل الإنسان إلى الاطلاع على حقيقة الإسلام والاقتناع به سبيل ميسور، إذ لا يحتاج إلى فطرة مكتظة بالخبرات، بقدر ما

يحتاج إلى تنقية هذه الفطرة مما اكتسبته من خبرات لا يدري إن كانت كسباً حقيقياً أو كانت تشويها وتلويثا لصفائها.

ويحتاج الإنسان إلى الحكمة ليرجع إلى فطرته السليمة كي يكون حكمه على الامور سليماً بعيداً عن مؤثرات لم تخضع أساساً لتحكيم العقل... مؤثرات مبنية على أساس الالف والمصلحة العاجلة وحسن الظن فقط.

فإذا ما نجح في ذلك ووقف على حقيقة دين الإسلام احتاج إلى الشجاعة الفائقة ليعلن لنفسه قبل الاعلان لغيره أنه كان على باطل حتى تلك اللحظة، وأن الدين الحق هو الإسلام الذي تعوّد أن يعاديه بلا سبب منطقي، بل لانه لقّن ذلك منذ طفولته.

* * *

اما تجربتي: فخلاصتها أن الله قد أراد بي خيراً فشرح صدري للإسلام دون مبادرة أو فضل مني وإنما محض منّة وفضل من المنان الكريم ولا راد لفضله.

والحق تبارك وتعالى إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ولكنه سبحانه جعل لكل شيء سبباً.

* * *

وفيما يلي أروي قصة اعتناقي الإسلام بما اشتملت عليه من دوافع وأسباب يسرها الله لي لينعم عليَّ بالإسلام بعد صراع نفسي

مرير وتردد وفتنة كادت أن ترديني في النار لولا أن تداركني ربي برحمته.

فأضرع إليه سبحانه أن يوزعني شكر نعمته التي أنعم عليَّ وأن أعمل صالحاً يرضاه والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

* * *

وقصة اعتناقي الإسلام التي اكتبها بعد مرور ما يزيد على سبعة عشر عاماً على ذلك الحدث ليست من الذاكرة وحدها بل كنت قد كتبتها من قبل باختصار فاثبتّ بذلك معظم تفاصيلها وكان ذلك بعد اسلامي بثلاث سنوات أيِ منذ أربعة عشر عاماً.

وظننت انني نسيت القصة إلا ما دونته منها، غير أنني عندما شرعت في إعادة كتابتها أخذت الأحداث تتوارد إلى ذهني وتذكرت أشياء لم أكن قد دونتها فذكرتها وزدت عليها بعض التعليقات التي جرت على خاطري استطراداً أثناء الكتابة.

* * *

شعرت وأنا أكتب ضرورة تحديد هوية ما للشخصية المخاطبة بما أكتبه كي احدد على ضوئها اسلوب الخطاب وانتقاء العبارات المناسبة، إذ أن لكل مقام مقالاً.

ولما كانت طبيعة هذا الموضوع تقتضي توجيه الخطاب إلى

أنماط مختلفة ومتباينة من الشخصيات البشرية، وكان إرضاء النّاس غاية لا تدرك، ولما أدركت انني لن استطيع الاتيان بأسلوب يرضي كل الناس، وطّنت نفسي على أن اكتب بأسلوب عفوي لا تكلّف فيه ولا تعقيد، فتركت قلمي على سجيته ليكتب ما يمليه عليه فيض خواطري من ذاكرتي، وما أستعين به من مذكرات مكتوبة. وقد ساعدني في ذلك طبيعة الموضوع، إذ أنه ليس موضوعاً انشائياً، بل قصة واقعية استعرض فيها ظروفاً ومراحل فكرية مررت بها.

ولم أر توجيه القصة لغير المسلمين أمراً مجدياً إذ تكفي كلمة واحدة أو اشارة عابرة إلى أن القصة تتعلق بالإسلام كي يصد عنها غير المسلمين إلا القليل النادر، لأن عادتهم الاعراض عن كل شيء يتطرق إلى فضل الإسلام أو الحديث عنه اجمالاً بسبب ما ورثوا من مخاصمة الدين الإسلامي بلا دليل ولا إثبات إلا من دعوى سمعوا بها من أسلافهم لا يسندها عقل ولا نقل ويعوزها كل دليل.

فاحب مخلصاً أن أوجه دعوتي إلى من يوفقه الله للاطلاع على هذه القصة من غير المسلمين بأن يعيد النظر فيما ألفى عليه آباءه من عقائد، وأن يقارنها بالعقيدة الإسلامية النقية، ثم يحكم بينها بعقله الواعي وبفطرته السليمة لا بعقله المغطى بغشاوات التعصب الموروثة ويكون بالتالي قراره عقلانياً ذاتياً مستقلاً، فيلقى ربه على الأقل بأمر اختاره هو لنفسه ولم يفرض عليه بلا وعي ولا اختبار

ذلك لاننا سنسأل يوم القيامة فرداً فرداً كل عن نفسه، ولن يقبل من أحد عذر بأنه وجد آباءه على طريقة فاتبعهم.

* * *

ولقد رأيت أن أوجه القصة إلى شباب المسلمين بالدرجة الأولى، لعلهم يجدون في تجربتي مع الظلمات والنور التي أنقلها ــ إن شاء الله بصدق وأمانة ــ ما يستعينون به بعد الله في دعوتهم إلى النور والحق، وليطلعوا على تجربة ما هي إلا مثال محدود للعناد والتعصب الأعمى ضد الإسلام والذي يعيشه غير المسلمين، وليدركوا ماهم فيه من نعمة الإسلام فيشكروا ربهم على أن نعمة الإسلام وصلت إليهم بتقدير الله بلا عناء ولا مشقة، فلم يضطروا إلى انتظار فرصة العمر للتعرف على الإسلام أو السعي إليه.

ولكي يدرك المسلم ما هو فيه من نعمة عظيمة فليفترض أنه ولد لابوين غير مسلمين ليرى كم كان أمامه من الفرص للاهتداء إلى الإسلام؟ فليحمد الله ربه على لطفه به ورحمته له واعفائه مما قد يلاقيه غير المسلم قبل اعتناق الإسلام وبعده.

فالحمد لله على دين الإسلام، وتوفيق الرحمن والصلاة والسلام على الرحمة المهداة إلى العالمين محمد بن عبدالله سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

* * *

مفهومي عن دين الموروث النصرانية

عشت منتسباً إلى النصرانية عشرين عاماً تقريباً.. كان الدين بالنسبة لي مسمى ينتسب إليه الناس بالتوارث خلفاً عن سلف شأن كثير من الناس، ففي مرحلة الطفولة كان مفهوم الدين عندي ينحصر في ما ترتب على ذلك الانتساب من مشاركة الأهل والأقارب والمعارف فرحتهم في مناسبات دينية يسمونها الاعياد.

وقد تعلمت الدين من البيت أولاً وذلك من خلال سلوك أهلي واجاباتهم على أسئلتي الاستيضاحية عن كل ما أرى وأسمع، فحصلت مع مرور السنين على معلومات كثيرة عن الدين ما كان لي خيار في مناقشتها أو الشك فيها فهي معلومات استقيتها من أمي وأبي.

وكان لسان حالي يقول: هل من المعقول أن يخدعني أبواي؟! إنهما يحباني حباً جماً، ولا أشك في حرصهما على مصلحتي، وما مصلحتهما في إضلالي؟ انني أحسن الظن بهما ـــ بلاشك ـــ وهما المصدر الموثوق والأبعد مايكون عن الريبة والشك! لقد علّماني الدين كما تعلماه من آبائهما، هكذا تلقياه بحسن الظن بالآباء، وأنا بدوري تلقيته عنهم فكان موضوع الدين مادة غير خاضعة للنقاش. لأنها صحيحة تماماً والدليل على صحتها أنها وردت في (الكتاب

المقدس) وهو كتاب لا يتطرق إليه الشك عندي اطلاقاً إذ قد شهد بصحته أبي وجدي وأجدادهم وأناس كثيرون غيرهم، فهل أكون وأنا الطفل الغرير أو الشاب حديث السن أكثر فهما من كل هؤلاء القوم؟.

ودخلت المدرسة وكانت مدرسة تبشيرية أميركية تعلمت فيها الدين ضمن المواد الدراسية الأخرى لمدة عشر سنوات تعلمت خلالها (التعاليم النصرانية) بشكل عام في المراحل الابتدائية، ثم تعلمت العقائد في المراحل التالية، واشتملت على تلقن التثليث في العقيدة، وهو ما يسمونه (سر الثالوث الاقدس) والفداء، والوحي، والنبوة، والعشاء السري الخ..

وكان يمتعنا مدرس الدين أحياناً بعرض صور جميلة شيقة للمسيح ومريم العذراء عليهما السلام، وكذلك صور بعض من يعتبرونهم قدّيسين وذلك بواسطة جهاز عرض صور ساكنة (بروجكتور) ـــ كانوا يسمونه سينما في تلك الايام ـــ وكانت رؤية الصور التي يعرضها ذلك الجهاز المتطور متعة بحد ذاتها ـــ بغض النظر عن الشخصيات الممثلة في تلك الصور ـــ لذلك كان يحرم التلاميذ المشاكسون من مشاهدتها عقاباً لهم.

وكانت وسيلتنا للتعرف على أصحاب الصور من غير المعروفين لدينا هي سؤال أستاذنا العلامة لمن هذه الصورة يا أستاذ؟ فيجيبنا.

وعرضت مرة صورة لشخصية مجهولة بالنسبة لنا كانت صورة

نصفية لرجل كهل طاعن في السن طويل شعر الرأس، عظيم اللحية، صافي العينين، كثيف الحاجبين، يحيط به السحاب من كل الجوانب. وطرحنا سؤالنا على أستاذنا.. من هذا يا أستاذ؟ فجاء الجواب أنها صورة الله.. زعموا أنها صورة رب العزة سبحانه وتعالى عما يصفون!.

حدث ذلكم في عام ١٣٨٣ هجرية وقد مضى على ذلك واحد وعشرون عاماً وما زلت أذكر تفاصيل ملامح تلك الصورة.. وهل أنسى تلك الصورة وقد قيل لنا أنها صورة خالقنا (سبحانه عما يصفون)؟ وقد كانت مفاجأة مذهلة بالنسبة لي لانه لم يسبق لي أن سمعت أن لله صورة متداولة بين أيدي خلقه.

ولكن ــ والحق يقال ــ لا أعرف أحداً من النصارى يعتقد هذا حقيقة. فربما كانت من قبيل وسائل الإيضاح لتعليم الدين في المدرسة، علماً بأن المدرس لم يوضح ذلك واكتفى بقوله أنها صورة الله.

ومن البيت تعلمت أساسيات كثيرة عن وجود الخالق، والجنة والنار، وحب المسيح ومريم العذراء عليهما السلام. وتعلمت أن هناك أموراً محرمة وغيرها حلال (على طريقة أهلي). كما تعلمت مبادئ أخلاقية كثيرة كالأمانة، والصدق، والاحسان إلى الفقراء، والتسامح وغيرها من مبادئ الحياة الفاضلة. وكان والداي ــ هداهما الله ــ القدوة الحسنة في ذلك فكان لاسلوب التوجيه في

البيت كل الاثر الطيب في ترسيخ هذه المبادئ في نفسي وفي تقويم سلوكي في حدود ما تطيق النفس البشرية.

أما في المدرسة، فعلى الرغم من وفرة المادة فلم يكن لها ذلك التأثير الذي يستحق الذكر لأن ما تعلمته منها كان لا يتعدى كونه مادة نظرية، وما أهمية مادة تدرس لتحفظ وهمّ الطالب أن يحصل على علامة النجاح فيها وهي تلقى عليه خلال سويعات في قاعة الدراسة لا يرافقها توجيه ولا قدوة؟ بل أن طابع تدريس الدين كان يتميز بتكديس المعلومات في أدمغة الطلاب بلا نقاش ولا اقناع — خذها أو دعها — فكان لا يجرؤ أحدنا على الشك في شيء أو مناقشته لئلا يتهم بالكفر.

وان كان هناك فرصة للمناقشة والاقناع فيتم ذلك بفرض قواعد قعّدوها لانفسهم ليبنوا عليها حججهم التي يتصورونها مقنعة ما دامت مبنية على أصول وقواعد وفرضيات يجب أن يسلم بها أولاً وبلا جدال، ولو كانت تلك الاصول سليمة لتحتم أن تكون الفروع المبنية عليها سليمة كذلك، ولكن هيهات.

فالاصول المزعومة لا يسندها عقل ولا نقل، إنما هي قرارات بشرية اتخذت في العهود الغابرة وأسبغ عليها طابع القدسية بدعوى أن المسيح — عليه السلام — قد خوّل حق التحليل والتحريم إلى الكنيسة وهي في اعتقادهم معصومة من الخطأ.

وما الكنيسة إلا مجموعة من البشر يموتون ويخلفهم غيرهم

فكيف تكون الكنيسة معصومة؟ يقولون هذا هو سرّ عصمة الكنيسة، وهناك أسرار كثيرة في الدين. وكلمة سرّ تشير إلى أمر ما لا يعلمه إلا الله وهي كلمة تلغي كل نقاش، وتعطل العقل تماماً. فسرّ الثالوث الأقدس هو أن الله ــ بزعمهم ــ يتألف من ثلاثة أقانيم كل واحد منها هو الله والثلاثة مجتمعة هي الله فالله واحد في ثلاثة. (الاقانيم جمع الاقنوم ومعناه الاصل كما في القاموس المحيط).

هكذا كان يقال لنا بل كنا ندرس ذلك في الكتب وفي المرحلة الثانوية. أما اليوم وبعد ازدياد الحرج من هذا السؤال، والحاح الناس بتدبير الأمر وحلّ اللغز، ابتكروا شيئاً أصبحنا نسمعه مؤخراً وهو أن الله كالشمعة، فالشمعة واحدة ولكنها مادة ونور وحرارة فهي ثلاثة في واحد. وأخيراً اهتدوا إلى هذا المثل القاصر ليشبهوا به التثليث المفترى على الله ــ وما ورد قط على لسان المسيح عليه السلام ــ ويقربوه من أفهام الناس الذين لم ولن يفهموه أبداً ناهيك عن تهافت المثل نفسه حتى في الدلالة على التثليث المراد تشبيهه. فاقانيم التثليث ثلاثة أصول، والشمعة أصل واحد. أما الضوء والحرارة فمظهران حادثان طرأا على الشمعة بعد اضاءتها فإذا انطفأت عادت إلى أصلها الواحد وفاتهم أن هناك مصدراً ما أشعل الشمعة فما دوره في الأقانيم الثلاثة وأين مكانه من هذا التشبيه الذي لا ينطلي إلا على البلهاء، فتعالى الله عما يصفون.

هذا في العقيدة. أما العبادات فهي تلبس كل يوم ثوباً جديداً لتلائم أهواء الناس، مثل عبادة الصوم التي انتابها كثير من التغيير في

هذه الأيام، وهذا ليس غريباً، فبما أن الأمر قد ترك إلى الكنيسة (ورجال الكنيسة) وهي معصومة ـــ بزعم القوم ـــ فكل ما يتدع في ذلك الاطار يصبح شرعاً. والدين في عرف القوم متطور، أي قابل للتعديل، مع تطور الزمان.

سبحان الله، أيترك الله بشراً في الأرض يتحكمون في دينه نسخاً واضافة وتحريفاً على ضوء مستجدات الزمان بدعوى أن المسيح عليه السلام أعطى حق التشريع لأناس توارثوه جيلاً بعد جيل؟ وما ميزة الدين إذن؟ ولماذا يسمى ديناً؟ وما الداعي لانزاله من السماء إذا كان أمر الحل والعقد سيؤول في النهاية إلى أيدي البشر؟ أيسمىّ تلاعب البشر بالشرائع ديناً ينسب إلى الله؟ أم يكون الدين لعبة بأيدي فئة محتكرة لما يسمى حق التشريع ويبقى بعد ذلك دينا؟ أين عقول العقلاء من هذا التلاعب والعبث باسم الدين وإلى متى؟.

ان الدين بهذه الصورة المغلوطة لا يزيد عن كونه تشريعاً وضعياً محتكراً لفئة تظلم باسم ربها العادل ولا تبالي. أما الدين الصحيح، فهو الدين الذي يحرر الناس من ظلم الناس ويبسط عليهم عدل خالقهم ويجمعهم تحت نظام من عند الله حقيقة فلا يزوّر ولا يحرّف، وليس لأحد من البشر أيّاً كان أن يعبث به أو يغير فيه.

كنت الاحظ التفرقة الطائفية في بعض مظاهرها السطحية، فكانت المناسبة الدينية الواحدة يحتفل بها مرتان في الموسم الواحد في وقتين متباينين بأسبوع أو نحوه فكان والدي مثلاً يحتفل بها اليوم

ويحتفل بها عمي قبل أو بعد ذلك بأيام وهم يعيشون داخل سور بيت واحد يضم الجد والاعمام وعائلاتهم، والابناء يرثون ذلك عن آبائهم ويتعصبون لطائفة دون أخرى. دون أن يسأل أحدهم نفسه لماذا؟.

كان وراء التحريفات المستمرة للدين، بتغيير أنماط العبادات والطقوس، ووراء بذر التفرقة الطائفية بين سكان البيت الواحد، حملات أجنبية مشبوهة، كانت تأتي باسم ما يسمى «التبشير»، وكانت تتنافس وتتناحر وتتبارى في كسب أكبر عدد ممكن من الرعايا بكل الطرق حتى ولو أدى ذلك إلى التنازل عن الكثير من المبادئ والطقوس أو استبدالها أو تحويرها بما يلائم أهواء العامة، أما الكذب فهو مباح في شرعهم إذا أوصلهم إلى كسب المزيد من الاشياع والاتباع، وكان ذلك حالهم فيما بين من ينتسبون إلى النصرانية من أبناء ملتّهم.

أما فيما يتعلق بالكذب والافتراء على الإسلام فهو بلا شك من القربات عندهم التي يتقربون بها إلى «معبودهم» ويحتسبون فيها الأجر والثواب منه.

لذا فقد افتروا على الإسلام الشيء الكثير، وطعنوا فيه ولمزوا، بشتىّ الوسائل والأساليب التي ضلعوا فيها، ولم يكن لهم سبيل للوصول إلى مآربهم الخبيثة إلا الكذب والاختلاق والتلفيق، فاشاعوا كثيراً من القصص المختلقة، والتلفيقات المحبوكة في المصانع

الابليسية، غايتها ومغزاها الطعن في الإسلام والنيل من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن صحابته الأخيار رضوان الله عليهم أجمعين، وظل أعداء الإسلام يتداولونها وإلى يومنا هذا، بل تفننوا في التمادي فيها والزيادة عليها حتى أصبحت ديدنا لهم ومنهاجاً!.

وإني على يقين من أن هؤلاء الكذابين، يعلمون تماماً أن ما يشيعونه من التلفيقات والأكاذيب ضد الإسلام ما هو الا اختلاق، ومحض افتراء وكذب، ومع ذلك تجدهم يتواصون به، ويلقنونه اتباعهم، ويورثونه أبناءهم، على أنه حقائق دون خوف من الله أو خجل من الناس أو من أنفسهم التي ستشهد عليهم يوم القيامة أنهم افتروا على الله كذباً، الا من تاب وآمن.

وهناك قصة يعرفها كثير من الناس في تلك البلاد وهي أن معلمة في مدرسة تبشير طلبت من الطالبات الصغار في إحدى حصص الدين عندهم أن يغمضن أعينهن، ففعلن، فوضعت أمام كل طفلة حبة شوكولاتة فأمرتهن أن يفتحن أعينهن وقالت: اتدرين من أتى بهذه؟ قُلْنَ من؟ قالت يسوع المسيح.. وأردفت قائلة: والآن أغمضن أعينكن مرة أخرى ففعلن فجمعت الشوكولاتة وطلبت منهن أن يفتحن أعينهن وسألت: أين ذهبت الشوكولاتة؟ أتدرين من سرقها؟ قلْنَ من؟ قالت محمد. (صلى الله عليه وآله وسلم).

وبهذه الطريقة ظنّت الخبيثة أنها ناصرت المسيح مناصرة كبيرة، وروّجت لمذهبها، وغرست في نفوس الطالبات حب المسيح وكره محمد عليهما الصلاة والسلام.

ومثل تلك المعلمة قليل أن يقال لها: «كبرت كلمة تخرج من فيك»، بل لا داعي لذلك، ويكفيها أن تعلم الآن إذا كانت لا تزال على قيد الحياة أن الطالبات اللائي سمعن منها تلك الكذبة المكشوفة بلغن الآن حتماً سن الرشد وسيتفكرن يوماً ما بمدى إفلاس تلك المعلمة ومن لفّ لفها حتى أضطرت للاحتيال بمثل ذلك الكذب الحقير لترويج مذهبها. وليت شعري كيف يكذبون على الكبار وبايّة طريقة يستميلونهم إلى مذهبهم إذا كان هذا هو أسلوبهم مع الصغار.

كانت تدور في رأسي كل الأفكار التي سمعتها ضد الإسلام وكنت أخوض مع الخائضين فيها وكنت لا أطيق سماع القرآن من المذياع لانه يختص بدين قيل لي منذ حداثة سني بأنه غير صحيح فأخذت ما قيل لي أمراً مسلماً به، وقد كان عدائي للإسلام والمسلمين شديداً دون ما سبب واضح أو مبرر ولو هزيل لذلك العداء ذلك لانني تعلمت أن أكون عدواً للإسلام دون أن أعطى الدليل ـــ لعدم وجوده أصلاً ـــ ولانني لم أسأل نفسي دليلاً على أن الإسلام يستحق ذلك الجفاء أو العداء مني أو من غيري. فعاديت ديناً لا أعرف عنه شيئاً غير ما علمني اياه من امتلأت قلوبهم بالحقد على الإسلام جهلاً وتجنيا وتقليدا أعمى.

كان يقابل ذلك إعتزاز بدين آبائي الذي أنتسب إليه انتساباً تبعياً وأتعصب له حمية دون التزام أو تطبيق عملي لمبادئه فلم يكن في

تعليم ذلك الدين ما يشعرني بالارتباط بخالقي مباشرة، فكل متعلقات الدين كانت بشخص المسيح عليه السلام وكأنّي بذلك الدين يرجوك أن تنتمي إليه فقط، والمسيح يكمل الباقي عنك، فكنت أعتقد كما هو ظن الكثيرين: ان مجرد الانتساب إلى الدين والاعتراف بالمسيح (عليه السلام) يكفي للنجاة من جهنم، فمن يريد شيئاً فليطلبه من المسيح ومن احتاج إلى وساطة خير عند ربه فليوسط مريم العذراء ومن أراد أن تغفر ذنوبه فليذهب إلى الخوري ليعترف له بذنبه. وهكذا فالمسألة مربوطة بأشياء أرضية وأشخاص من البشر.

كان الانطباع الغالب على شعورنا أن الدين أسرار، وهذا يرفع من مقام الدين في نظرنا، وكأن الدين أنزل بلغة الٰهية لا يكاد يعرفها غير الله ونوابه المزعومون في الأرض الذين يفسرونها بما تهوى أنفسهم ومن حين لآخر تصدر التفاسير والقرارات الجديدة التي تلائم العصر، فتارة يبيحون الطلاق بعد أن كان عندهم محرما، وتارة يبرئون اليهود من قتل عيسى وقد كانوا بالأمس مجرمين، بالاضافة إلى ما كان من اصدار قرارات الحرمان والعفو وصكوك الغفران المعروفة، وبيع الأراضي في الجنة، وما إلى ذلك مما لا يمكن لأحد أن ينكر وقوعه وكان كثيرون يدرؤون هذه النقائص عن أنفسهم متعللين بأن ذلك رأي الطائفة الأخرى.

* * *

أما في مسألة التثليث وألوهية المسيح فهناك اختلاف لا حد له بين الطوائف إذ لا يمكن اجمال معتقد النصارى وحصره في مفهوم واحد واضح لانهم مختلفون جدا في الآراء، ولا تكاد تناقش أحداً منهم حتى يحيل ما تواجهه به من احراجات منطقية وعقلية إلى طائفة أخرى.

من خلال مناقشتي بعض الأوروبيين في معتقداتهم في النصرانية كنت الاحظ أن مفهوم الدين عندهم يختلف عنه عند النصارى العرب حتى أن غير واحد منهم قال «ما الكتاب المقدس (أي التوراة والانجيل) إلا دليل اجمالي للمسيحي كي يحدد على ضوئه طريقته في الحياة، وأنه ليس مطلوباً منا التمسك به حرفياً».

وقال لي أحدهم: «لا يجوز لك أن تناقشني في نصوص من الكتاب المقدس لان المعنى المقصود منها غير ظاهرها، وهي رموز لأشياء لا يفهمها الشخص العادي».

والاختلاف في وجهات النظر في النصرانية فيما بين الشرق والغرب اختلاف بيّن واضح والمطلعون على واقع تاريخ الكنيسة يعلمون أن معتقدات النصرانية منذ عام ٣٢٥م وهي نهب لمن هب ودب من المنتسبين إليها، فقد اثخنوها تحريفاً وتبديلاً وتطويراً وكل قوم يصممون معتقدهم بالشكل الذي يظنونه مقنعاً لمحيطهم وزمانهم لمجرد اجتذاب الناس اليه ولمّ أكبر عدد ممكن منهم حوله، ولا فرق بين اتباع الحق أو الباطل في سبيل الوصول إلى تلك الغاية وقد

أكد لي شيخ حديث الإسلام وقد كان راعياً لكنيسة بأن المبشرين يكذبون لترويج مذهبهم.

والملفت للنظر هنا هو أن يسعى أناس ـــ يزعمون أنهم يدعون إلى الله ـــ لترويج مذاهبهم عن طريق الكذب والغش والتدليس في العقيدة. فهل من يدعون إليه قاصر وضعيف ويحتاج إلى من يكذب من أجله؟

لاشك في أن من يلجأ إلى الكذب لترويج مذهبه انسان أقل ما يقال فيه أنه غير مقتنع بمذهبه ولا يثق بما أو بمن يدعو إليه. وأنا كمسلم الآن لا أنكر أن المسيحية دين سماوي في أصلها ولكن شتان ما بين المسيحية الحقيقية ـــ مسيحية سيدنا عيسى المسيح ابن مريم عليه السلام ـــ وبين ما يدعّي به المبشرون المتنفعون فهم إما أنهم يعتبرون ربهم ضعيفاً مهينـاً فهم يناصرونه بالكذب وأما أنهم لا يؤمنون حقيقة بما يدعون إليه ويستعملون الدين ستاراً لمآرب أخرى لا تتعدى المصالح الدنيا.

فالغربيون عموماً استغلوا النصرانية ونصارى العرب أبشع استغلال للوصول إلى مطامعهم المادية المختصة بعرقهم، لذا نجدهم حتى اليوم ينظرون إلى الشرق بمنظار واحد، إلا أنهم يستغلون العواطف الدينية لدى النصارى الشرقيين لخدمة أغراضهم، فيعلنون الوصاية عليهم ويزعمون حمايتهم من المسلمين. وقد أوهموهم بأن المسلمين سيأكلونهم لولا دعمهم لهم ، واني اتساءل.. ترى أين

كان هؤلاء المدّعون أيام الفتح الإسلامي وأيام صلاح الدين الأيوبي؟ ومن وفّر لهم الحماية منه؟ أتراه بطرس الناسك منشط الحملات الصليبية؟ أم عدل الإسلام وشهامة صلاح الدين وخلق الجنود المسلمين؟.

أين كان أولئك الكذابون عندما كانت السيطرة التامة بيد المسلمين، بينما النصارى يعيشون بينهم بأمان الله الذي فرض الله على المسلمين أن يؤمنوه للذميين من أهل الكتاب؟ ولا أحسب نفسي إلا شاهداً على ذلك الأمان، فوجودي اليوم دليل على أن المسلمين لم يأكلوا اجدادي من النصارى وهم عرب ، وليسوا بذوراً أوروبية بذرت في بلاد الإسلام بعد تأمين الحماية المزعومة.

وأنني أعتقد مما لمسته من خلال احتكاكي بالغربيين أنهم يحتقرون النصارى العرب ويعتبرونهم نصارى من الدرجة الثانية أو الثالثة بل أن عامتهم لا يكاد يصدق للوهلة الأولى بأن هناك عرباً يدينون بالمسيحية، وذلك يؤكد أن نظرتهم إلى العرب بما فيهم النصارى نظرة واحدة فالعرب في ثقافة الغربيين كلهم مسلمون، وهذا استنتاج منطقي لانه ينبغي لهم أن يكونوا كذلك، فالنصارى العرب مسؤولون مسؤولية كبيرة أمام الله لانهم يفهمون لغة القرآن ويطرق سمعهم ما فيه من الانذار والوعيد للمكذبين بدين الله الحق وهو الإسلام فأين يذهبون وإلى أين يفرون من الله وأيّ عذر يعتذرون به عن تكذيبهم الإسلام بلا حجة ولا دليل إلا افتراءات اسلافهم من

البشر اتخذوهم أرباباً من دون الله فصدقوهم بلا نقاش وأطاعوا أمرهم طاعة عمياء.

لم أكن ملتزماً عملياً بالنصرانية، ولا يعني ذلك أنني لم أطبق شيئاً منها، ولا أنكر أن البقية الباقية من هدى المسيح عليه السلام، والتي لم تنلها يد المحرفين، فيها اخلاقيات عالية ومعاملات حسنة قد تصل إلى درجة المبالغة والافراط في التسامح فكنت أراعي كثيراً منها، ولكن مدى تأثير الوازع الديني في ذلك كان ضئيلاً، فالسلوك يتعلمه الإنسان من أهله وبيئته ومن العرف العام فيحبّ أن يراعي الآداب العامة وحسن المعاملة ليكسب حب الناس وثقتهم ويعيش معهم بسلام.

لذلك فقد كان الخوف من انتقاد الناس والحرص على ارضائهم وكسب مدحهم وثنائهم هو الدافع الحقيقي والأقوى خلف تلك الأخلاقيات، لهذا لا أعتبر نفسي انني كنت متديناً رغم أنني — ظاهرياً — كنت أذهب إلى الكنيسة أحياناً، واطبق كثيراً من تعاليم الدين ولكني أعرف الآن أن الوازع لم يكن دينياً بقدر ما كان أخلاقياً.

كان والدي يذكرنا في مناسبات كثيرة بأقوال المسيح عليه السلام وتعاليمه وكنا نحس بحب المسيح ونحرص على اتباع أقواله كلما استطعنا وذلك لنرضي المسيح فقط لأنه يحبنا ونحبه فيعز علينا مخالفته، وسرعان ما كان يختفي هذا الشعور إذا جد الجد، فمن

يطيق أن يدير خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن؟ ومن يفرط في شيء يملكه لمن يأخذه منه سرقة أو عنوة وقهراً؟ ومن يحب اعداءه ويبارك لاعنيه؟ ومن يصلي من أجل الذين يسيئون إليه؟ بل ومن من النصارى اليوم يطبق هذه التعاليم في واقع حياته؟ كان حبنا للمسيح حباً مفعماً بالشفقة، فقد كانوا يستدرون عطفنا عليه فتارة يظهرونه ـ بالصور المتداولة بينهم ـ بمظهر الطفل الجميل الوديع وهو مولود، وتارة وهو يمص ثدي أمه ببراءة، ثم وهو معلق على الصليب وجبينه يقطر دماً من أكليل الشوك فوق رأسه، ويداه المسمرتان إلى الصليب تنزفان. ويقولون أن المسيح تحمل كل تلك الآلام من أجلنا ـ نحن البشر ـ ومن أجل خلاصنا من الخطيئة الأصلية والخطايا الأخرى.

كانت الديانة عبارة عن مجموعة عقائد وهي أسرار فوق مستوى الفهم البشري ومجموعة طقوس وتعاليم مترتبة عليها. أما الجانب التطبيقي من تلك التعاليم فرغم صعوبة تنفيذه فقد كان مطلوباً مراعاته لارضاء المسيح الذي يحبنا وتعب من أجلنا كثيراً ولكي يرضى عنا ويدخلنا السماء.

تعلمت الإسلام في مدارس الأقصى

في نهاية العام الدراسي ١٣٨٤هـ قدر الله خلافاً بين والدي وإدارة المدرسة التبشيرية، وكان ذلك فاتحة أحداث جعلها الله سبباً في انتقالي من الظلمات إلى النور، قرر والدي على أثر ذلك الخلاف نقلي ونقل أخواني من تلك المدرسة، ورغب والدي في استمرار تعليمنا في مدرسة خاصة حيث التعليم أفضل نسبياً، وكانت مدارس الأقصى قد تأسست في نفس ذلك العام باشراف مديرها العام الأستاذ المعروف والمربي الفاضل/يوسف العظم، وكانت سمعتها طيبة ومشجعة فالحقني والدي بها مع أخي الأكبر.

كان والدي يدرك أننا سنقبل على وسط مختلف عما عهدناه، وكان من المعلوم لديه مسبقاً أن اتجاه المدرسة اسلامي تبعاً لإدارتها، لذلك فقد زودنا بالنصائح اللازمة قبل دخول تلك المدرسة... حذرنا من الخوض في مناقشات سياسية أو عقائدية، ومن التحيز لفئة ما من فئات الطلاب، لأن ذلك يجر علينا المشاكل ونحن في غنى عنها.

دخلت المدرسة الجديدة وشعرت أنني في وسط غريب، يتملكني فيه الحرج والخوف من أن أبوح سهواً بما اكنّه لهؤلاء المسلمين المحيطين بي من كل جانب على غير ما اعتدنا في كلية

«تيراً سانتة» ـــ مدرسة التبشير سالفة الذكر ـــ خاصة في جو مدرسي لا بد فيه من احتكاك الآراء وإثارة الخلاف.

في صباح اليوم الأول لدخول المدرسة ألقى المدير كلمة على الطلاب المجموعين في الساحة قبل توزيعهم على فصول الدراسة... ومما جاء في تلك الكلمة ما مضمونه «لا فرق عندنا في هذه المدرسة بين طالب شرقي ولا غربي ولا مسلم ونصراني... وتمنع المناقشات السياسية داخل المدرسة... جميع الطلاب سواء في الحقوق وكل قوي بالحق ضعيف بالباطل أيا كان، ثم استعرض خطة المدرسة ونظامها الداخلي وغير ذلك من التوجيهات التربوية العامة فتطرق إلى موضوع تدريس الدين الإسلامي في المدرسة فقال ما معناه أن الطلاب المسيحيين مخيرون فمن أراد حضور حصص الدين فلا مانع لدينا، ومن أراد الخروج منها فله ذلك وهو حر في اختياره، ان المسيحيين أبناء عمومتنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

كان لكلمات المدير وقع طيب في نفسي وأشاعت في نفسي شعوراً أكيداً بأن كرامتي ستصان وأن حقوقي ستكون محفوظة ولن يكون هناك تفرقة ولا محاباة لأحد...

وبانتظام جدول الدروس خلال الأسبوع الأول تقريباً جاءت أول حصة للدين الإسلامي وكان عليَّ أن أختار بين أن احضرها أو لا.. فترددت وأخذت أقلب الأمور في خاطري.. لقد كان المدير يجاملنا ولم نسمع منه أو من غيره كلمة همز أو لمز لمعتقدنا أو كرامتنا،

وحضور حصة الدين رد مجاملة بمثلها، وفي المقابل كان عدم حضور حصة الدين ــ في نظري آنذاك ــ يعني أن دينكم أيها المسلمون غير جدير بالدراسة، فكان من أبسط قواعد الأدب أن أحضرها ولو مجاملة فاقنعت نفسي بأنني ساستفيد من الناحية اللغوية على الأقل وكنت أحب اللغة العربية.

وعلى الرغم من ذلك لم أعزم على حضور حصة الدين وبقيت متردداً، ثم قررت أن أنتظر وصول معلم الدين فأحسم الموقف، فقلت لنفسي إن كان وجه المعلم سمحا حضرتها وإلا فسأخرج... وكان اشتراطي الأخير هذا نابعاً من تصوري لمعلم الدين وما عسى أن يكون عليه من هيئة بغيضة رسمها في ذهني حقدي على الإسلام فكيف على معلمي الإسلام؟!! جاء الشيخ الجليل محمد هليل فتأملته وهو يلقي السلام علينا بوجه متهلل فيه كل السماحة التي اشترطتها كي أحضر حصة الدين فقررت حضورها.

وجدت أن الدين كمادة دراسية تحتاج لجهد وحفظ واتقان لقراءة القرآن... خشيت أن تؤثر درجاتي في الدين على درجاتي في بقية المواد فطلبت إلى مربي الفصل ألا يعتبر درجاتي في الدين ضمن المعدل العام لأن مادة الدين بالنسبة لي لم تكن إجبارية أو أساسية ومع ذلك كنت أبذل جهداً في دراسة المادة وحفظها يساعدني على ذلك تشجيع المعلم، وكان عندي دافع آخر وهو ألا يؤخذ تقصيري في المادة على أنه استهتار أو أهمال مني رغم أنني درست المادة باختياري المحض كما أسلفت.

لم تؤثر دراستي للدين على بقية المواد وكنت مجتهداً في كل المواد فكان ترتيبي الأول في الفصل والأول في مادة الدين في نهاية العام.

وفي العام الثاني تابعت دراسة الدين ولم تؤثر في تحصيلي العلمي كما ظننت واهماً وكان ترتيبي الأول في فصل يضم (٤٥) طالباً منهم خمسة مسيحيون غيري لا يدرسون الدين معنا.

ولكن في هذه السنة الثانية أخذ اهتمامي بدراسة الدين ينبع من داخلي بعد أن كان خوفاً من اساءة الظن بي في العام المنصرم، شعرت أنني بدراسة الدين أتعلم أشياء جديدة في موضوعاتها وتأثيرها في النفس.. شغفت بحفظ آيات القرآن وكنت أحفظها بسهولة وسرعة وأصبحت المادة عموماً سهلة وممتعة.

وفي حصص القرآن الكريم كان معلم الدين يقدمني لتلاوة القرآن غيباً قبل بقية الطلاب لثقته بحفظي وكأني به كان يحب أن يفتتح الحصة بشيء من هدوء الأعصاب حيث كان الطالب الكسول يثير أعصابه، ثم يسمح لي بمغادرة الفصل الدراسي لبقية زمن الحصة وكان بذلك يرمي عصفورين بحجر واحد.. كان يصرفني خارج الفصل ليكافئني على حفظي حيث أن الجلوس داخل الفصل أثناء التسميع يعني كتم النفس أو ما يشبهه فلا يستطيع الطالب أن يهمس لجاره بشيء، ولا أن يتحرك أدنى حركة تثير ارتياب المعلم ولا أن يميل رأسه ويأخذ غفوه بل كان عليه أن ينصت وهو متيقظ

إلى تعتعة الطلاب الآخرين والتقريع اللاذع من المعلم لسوء حفظهم ويترقب دوره بالخوف والوجل مما قد يناله. أما العصفور الثاني فلم أعلم به إلا بعد اسلامي فقد ذكر لي الزملاء أنه كان يشتد في تقريعهم على اهمالهم وسوء حفظهم ويعيب عليهم ذلك بالمقارنة بأهتمامي وحسن حفظي للقرآن وأنا غير المسلم.

كان مدير المدرسة يعقد ندوات أسبوعية بعد انتهاء الدروس.. يطرح موضوعاً ويتكلم فيه ثم يترك للطلاب حرية النقاش معه وكان هدف تلك الندوات واضحاً وهو الدعوة إلى الإسلام، ولكن دعوة من؟ لم يكن يحضر تلك الندوات غيري من غير المسلمين فهي دعوة للمسلمين إلى الإسلام لتحصينهم بالحجة والبرهان وتثبيت الإيمان في قلوبهم لمقاومة التيارات الفكرية التي كانت تجتاح المنطقة.. فقد كان لدينا في الفصل في السنة الأخيرة طلاب ينتمون إلى الإسلام والمسيحية والشيوعية والوجودية واتجاهات قومية وفكرية أخرى.

لذا كانت موضوعات الندوات تدور حول المقارنة بين التشريع في الإسلام والعقيدة الإسلامية وبين العقائد والتشريعات والثقافات والأفكار الأخرى.

كان الإسلام يتميز من خلال تلك المقارنات بعمقه وواقعيته، بحلمه وسعته، فكان السيد الذي لا يقهر أمام غيره من التشريعات السماوية والأرضية على حد سواء.. وبدت حدوده ومعاملاته مثالاً

للتشريع الحكيم الذي يناسب واقع البشر ومقتضيات فطرتهم.

كان المدير يطرح موضوعاً دينياً ويناقشه مع الطلاب، وكان المسلم وغير المسلم (أنا) يتشكك في شيء ما فيعرض وجهة نظره وارتيابه فيستقبل المدير اعتراضه بصدر رحب ودون تشنج ويرد عليه الرد العقلي المنطقي المقنع، ويأخذ معه ويعطي حتى يقتنع. وجدت أن الدين يناقش هنا، بمعنى أنه يؤخذ بالاقناع والأقتناع، فكان هذا شيئاً جديداً عليّ.

وبدا لي ــ وقتئذ ــ إن الإسلام دين عقل ومنطق وقوة وعزة وواقعية، ومع القوة والعزة تجد الحلم والرحمة.. وكان يظهر حلم الإسلام بوضوح ــ لاتحجبه سحابة حقد ولا موجة تضليل ــ إذا تعرضنا إلى موقف الإسلام تجاه غيره من الديانات أو الرسالات السماوية وتكريم أصحابها من الرسل عليهم الصلاة والسلام وإلى الإنسان كإنسان ــ بغض النظر عن معتقده ــ ثم موقف الإسلام المتميز من الذميين وأهل الكتاب بشكل خاص. من ذلك على سبيل المثال موقف الخليفة العادل عمر ــ رضي الله عنه ــ من الذمي اليهودي العاجز حين وضع عنه الجزية وأمر له من بيت مال المسلمين بنفقة تكفيه.

لو قارنا هذا الموقف بمواقف الذين يدعّون أنهم مبشرون، من الذين يضيقون العيش على فقراء المسلمين ويسدون في وجوههم طرق الكسب في بعض بقاع الأرض ليضطروهم إلى اتباع ما يسمونه

ظلماً «المسيحية» مقابل لقمة عيشهم لعرفنا إن الإسلام هو الدين عند الله وأنه يكفل حرية الاعتقاد للذميين ويعاملهم بشهامة ونبل ولعرفنا أيضاً أن المسيح عليه السلام بريء من زاعمي التبشير ومن أساليبهم الوضيعة، وأن هؤلاء المدّعون لا علاقة لمسلكهم بمعنى التبشير إلا أن يكون تبشيراً ـ لهم ومن يتبّعهم ـ بالخلود في نار جهنم وبئس المصير.

كان واضحاً أن نظرة الإسلام لغير المسلمين نظرة الرأفة يرمقها القوي الواثق إلى الضعيف المغرر به، وبالعكس فموقف غير الإسلام من المسلمين موقف الضعيف المهزوز الذي يخاف على عقيدته وكيانه من أي شيء ويخشى حتى القشة تهب بها الريح من جانبه فيحسبها صاعقة نزلت عليه لأنه يدرك مدى ضعفه وإمكانية تقويض أساسه بسهولة فكيف لا يخشى الإسلام العظيم الذي يمثل كل الخطر الحقيقي على باطله وفساد طويته.

خلال العام الأول في مدرسة الأقصى تأسست فرقة الجوالة وكنت أحب الرحلات فانضممت إليها وكان اسم فرقتنا «حماة الأقصى» وكنا ننظم الرحلات الكشفية إلى مناطق مختلفة مختارة. وكانت رحلات هادفة القصد منها بناء شباب مسلم قويم وقوي، فكان من حسن توفيق الله لي أن جعلني بينهم أرى ما يرون وأسمع ما يسمعون وأوعظ بما يوعظون به.

كان مدير المدرسة يرافقنا في تلك الرحلات، فكلما عرضت لنا

مسألة أو قمنا بعمل ما وعظنا من هدي الإسلام وبيّن لنا حكم الإسلام في ذلك العمل أو روى لنا قصة مشابهة من التاريخ الإسلامي فيها عبرة وقدوة. فكان أفراد الفرقة يحافظون على الصلاة في أوقاتها.

كذلك لما كنا نقوم ببعض الرحلات خلال شهر رمضان المبارك كانوا يحافظون على الصيام أيضاً وكنت أصوم معهم مراعاة لشعورهم في بادىء الأمر ثم أحببت الصيام ووجدت فيه متعة الصبر وضبط النفس.. حتى أنني صمت يوماً في شهر رمضان وقد وافق ذلك اليوم ذكرى ميلاد المسيح عليه السلام وكان عندنا ــ آنذاك ــ عيد، فافطرت عند الغروب من غداء العيد.

كان ذلك يثير ارتياب وشكوك والديّ وكانا يلاحظان تأثري بالمدرسة ولكن ربما قالا هذه نزوة وتزول ولم أجد من قبلهما ممانعة شديدة في ذلك فكنت أصوم لانني كنت أجد متعة خاصة في الصوم، ففيه تربية للنفس وانتصار الإرادة القوية على شهوة الطعام والشراب التي لم أجرب قط مخالفتها من قبل.. وكان ذلك يزيد من ثقتي في نفسي ويقوي أرادتي.

وأثناء اداء الصلاة، كان المدير هو الإمام فكان يقرأ أحياناً في صلاة الفجر ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك ربّك وما قلَى وللآخرة خيرٌ لك من الأولى ولسوف يُعطيكَ ربُك فترضَى ألمْ يجدْك يتيماً فآوى وَوَجدكَ ضالاً فهدى ووجدك عائلا فأغنى فأما اليتيم فلا

تَقْهر وأما السائلَ فلا تَنْهَر وأما بنعمةِ ربِّكَ فحدّث﴾ ثم يقرأ في الركعة الثانية ﴿وقضى ربُّك ألاّ تَعبُدوا إلاّ إيّاه وبالوالدينِ إحسانا إمَّا يبلُغنَّ عندَكَ الكبرَ أحدُهما أو كلاهُما فلا تَقلْ لهما أُفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولاً كريماً واخفضْ لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾.

كنت كلما سمعت تلك الآيات دمعت عيناي ورق قلبي لحلاوة تلك الآيات الكريمة وما فيها من معاني الرحمة والرأفة فعدم قهر اليتيم أو نهر السائل.. والإحسان للوالدين.. وخفض الجناح لهما من الرحمة وطلب الرحمة لهما جزاء تربيتهما... كلها وصايا رحيمة رقيقة يرق لها القلب.

وأداء صلاة الفجر بحد ذاته كان له أثر خاص في نفسي وإن لم أصلِّ معهم. فالاستيقاظ في ذلك الوقت المبكر من النوم، والوضوء والصلاة لذكر الله، أشياء جديدة في حياتي لم أشهدها عملياً من قبل بل كنت أسمع بها فقط.

تعلمت في هذه المدرسة الشيء الكثير عن عقيدة المسلمين وحدود الإسلام ومعاملاته وأخلاقه من الكتب المقررة ومن شرح المعلم... وتعلمت الإسلام كفكر ومبدأ وعقيدة من الندوات وما دار فيها من حوار ونقاش... شهدت جوانب كثيرة من الإسلام تطبق عملياً من خلال الرحلات الكشفية ومن الطابع العام للمدرسة وسلوك من فيها إذ كان كثير من المدرسين والطلبة قدوة حسنة

وأمثلة طيبة للمسلمين. كما تعلمت من المدرسة الرجولة والخشونة وتربية الإرادة واحترام العقل وحرية التفكير والأختيار.

تعلمت أن دين الإسلام.. دين عقل وواقعية.. يشرع لكل صغيرة وكبيرة مما يعترض الإنسان في حياته من مسائل وأحداث خاصة وعامة روحية واجتماعية وسياسية وأنه يركز على وحدانية الخالق عز وجل.

وأخذت اتساءل :

أهؤلاء هم المسلمون الذين أكرههم؟

أهذا هو الإسلام الذي اتخذته عدواً بلا مبرر؟ وهو يوصي بي ويرأف بي ويحترم ديني (دين عيسى عليه السلام) ومتى؟ في أوج عزه وقمة ضعفي وقلة حيلتي، وإذ أنا أو من هم مثلي آنذاك (النصارى) في مجد الإسلام فئة قليلة ضعيفة بين كثرة قوية وسلطة حاكمة؟.

أرسول الإسلام محمد ﷺ، الذي أجحد نبوته، هو الذي يقول :«من آذى معاهداً فقد آذاني ومن آذاني كنت خصمه يوم القيامة»؟.

لقد اقتنعت بأن الإسلام مثالي لإصلاح المجتمع وقيادته وتوجيهه إلى الخير لا ينازعه في ذلك أي نظام آخر.

كانت كل وصية رحيمة أو تشريع سمح في الإسلام تجاه أهل الكتاب خنجراً يخزني في أعماق نفسي، لوماً وتأنيباً على ما كنت

أكنه للإسلام والمسلمين من عداء، جهلاً وتجنِّياً مني عليهم.

ترى، ألا يعتنق الإسلام دون تردد من مر بمثل هذه التجربة؟

ألا يصفو القلب الحاقد بعد كل ما تقدم وينقلب حقده على الإسلام والمسلمين إلى محبة ووئام؟

ألا يزهق الباطل بعد بزوغ فجر الحق؟

ألا تكفي الحقائق التي أدركتها عن الإسلام لتغيير نظرتي إليه وموقفي منه فافكر في اعتناقه؟

ترى هل أسلمت؟

لا، لمّا أسلم... ولم يتغير موقفي من الإسلام رغم كل ما حدث، ولكنه تأثر إلى حد ما.

صحيح أنني كنت أحس بلسعات من اللوم الذاتي وتأنيب الضمير على موقفي من الإسلام والمسلمين ولكنها كانت ومضات خاطفة لا يلبث أن يزول أثرها بمجرد الحنين لما ورثت وما ألفت من التعصب والعداوة للإسلام.

فالحقائق الجديدة عليّ عن الإسلام كان عمرها لم يتجاوز السنتين أما الاباطيل والشبهات التي كنت أسمعها عن الإسلام والتي ورثتها من البيئة وألفتها فكان عمرها تسعة عشر عاماً في نفسي.

من المعقول أن يكون لتلك الفترة التي قضيتها في المدرسة أثر طيب في تلطيف مشاعري تجاه الإسلام، وقد احترمته وأقررت

بفضله كنظام حياة، وكان من الممكن أن أعترف به ـــ بلساني ـــ كدين مثل بقية الديانات السماوية إذا اقتضى الأمر ذلك على سبيل المجاملة... أما أنني أفكر في اعتناقه وهجر دين أهلي وعشيرتي فهذا ما لا أذكر أنه خطر لي على بال، وإن حدث شيء من ذلك ربما كنت أعتبره من وساوس الشيطان.

كان الحسد والغيرة أحياناً يأكلاني كلما أحسست بأن المسلمين بإسلامهم أفضل مني وكان ذلك يدفعني للعناد والتعصب... فرغم أنني لم أكن ملتزماً بالمسيحية بمعنى الالتزام الذي أفهمه اليوم، ألا أنني كنت متعصباً لها وكم من الناس يتعصبون لدين انتسبوا إليه ويثورون من أجله حمية وهم أبعد ما يكونون عن الالتزام به عملياً.

انقضى العام الثاني من الدراسة ... وحتى ذلك الحين، كان ظني أنني لم اتأثر بشيء في المدرسة، وأن كل تلك الحقائق لم تغير شيئاً من تفكيري ولا موقفي... ولم أكن أدرك أن ما تعلمته خلال سنتين في المدرسة الإسلامية قد نسف كل مفاهيمي التي استقيتها من مدرسة التبشير خلال عشر سنوات، وقلبها رأساً على عقب، وان تلك الفترة بما تخللها من صقل وتوجيه كانت فترة اعداد لمولدي من جديد فكراً وعقيدة.

انقلبت المفاهيم .. وبدأت رحلة الفكر ..

بعد انتهاء العام الدراسي الثاني وحلول الاجازة وجدت الأفكار الجديدة التي تعلمتها فرصة للتململ، فقد كان الاهتمام بالدروس لا يترك لها سوى القليل من اهتمامي، أما وقد صفا لها الجو فقد تصدّرتْ أولويات التفكير عندي حتى أصبحت تؤرقني.

لم أعد راضياً عن نفسي وأصبحت أعيش قلقاً فكرياً إذ وجدت لدي مؤهلات عالية ودوافع قوية للتفكير ولإعادة النظر في كل شيء وكأنني أريد، أن أحل الغاز الكون كلها.

لقد تعلمت حرية التفكير وأسس التفكير العقلي السليم وتعلمت أن اتخذ القرار الذي اقتنع به، وان اناقش نفسي فيما تفعل ولماذا تفعله، لم أعد أقبل أن يكون عقلي مستسلماً لما أَلِفتُ ولما ورثت دون اقتناع.

فما هو الصواب وما هو الخطأ وأين الحقيقة؟

شعرت بأن أمامي مهمة جسيمة وان عليّ حملاً ثقيلاً لن يزاح عني الا إذا عرفت كل شيء، الا إذا اقتنعت بكل شيء. كان بودي لو ادركت كل حقائق الحياة في لحظات.

كنت قد أدركت في أعماق نفسي أن هناك فرقاً بين مسلمي اليوم وبين الإسلام العظيم الذي أسر عقلي بمميزاته الفريدة. اكتشفت

ديناً جديداً كنت أسمع عنه المغالطات، يتميز بالواقعية والبساطة ومخاطبة عقل الإنسان وتنظيم الفطرة البشرية والإيمان بالله الواحد الأحد المنزه عن كل شرك، أصبح عندي مفهوم جديد عن الدين عموماً وكيف يكون الدين ولمن يكون الدين.

كانت النتيجة الطبيعية أن اتشكك في ديني السابق الذي لم أكن مقتنعاً به عن طريق العقل وإنما كنت مقلداً في انتسابي إليه بالوراثة.

وأنّى لعقلي بعد المؤهلات الجديدة أن يقتنع بالمسيحية وما فيها من الطلاسم والأسرار والتثليث «وابن الله وأم الله» والاعتراف للخوري بالذنوب وبلع الخبز المغموس بالخمر، لمغفرتها واحراق الشموع اهداراً للمال أمام التماثيل التي نصبوها للمسيح وللعذراء أو الصليب تقرباً للمسيح وكأن المسيح عليه الصلاة والسلام بحاجة إلى نور الشمعة تلك وأشياء كثيرة يسمو العقل عن تلقيها بالقبول الا ان يكون مكنوناً بغشاوات من التعصب والتقليد الأعمى الموروث. وإذا سأل سائل عن تلك الأمور جاء الجواب إما هذا سر لا يعلمه إلا الله وإما هذا رمز لكذا وكناية عن كذا.

وفي المقابل.. دين الإسلام مفتوح لجميع خلق الله، دين علني ليس فيه أسرار تكتم عن عامة الناس ولا حتى عن خصوم الإسلام فقد كنت بينهم نصرانياً لم أحس يوماً ان هناك شيئاً من الدين يكتم عن أي إنسان فالدين دين الله ليس ملكاً لأحد ويحق لمن يريد أن

يعتنقه أن يفعل دون أن يستأذن أو يأخذ رخصة من أحد من البشر، والدين أمانة بين العبد وربه والله سميع بصير لا يحتاج إلى توسيط شيخ ولا كاهن ولا ولي ولا نبي بينه وبين خلقه.

وكأني بالإنسان المسكين لا شأن له بما يعتقد ـــ من وجهة نظر المسيحية كما تعلمتها ـــ وعليه أن يسلم ويصدق ويلقن فيبصم على كل ذلك ضريبة حظه الذي جعله وارثا لابوين يدينان بالمسيحية. فعلى المسيحي أن يتلقى كل ما يفرض عليه من المعتقدات دون مناقشتها أو وزنها بميزان العقل قبل تصديقها.

وقد سألت أحد القساوسة ـــ وهو معروف بأنه علاّمة وصاحب حجة ـــ وكنت اناقشه في المسيحية، وقد علم باعتناقي الإسلام قلت: تقولون ان الله نزل من السماء، وتجسد في المسيح، وصُلب من أجل التكفير عن خطايا البشر، في حين أن الله سبحانه وتعالى قادر على مغفرة ذنوب عباده بلا واسطة، ويستطيع أن يقول من فوق العرش العظيم :«غفرت لكم ياعبادي» فما الذي يحوجه إلى ارسال ابنه كما تعتقدون أو نزوله هو إلى الأرض ويترك اليهود يعلقونه على الصليب، فيقتلونه حتى يكون فداء لذنوب الناس فيغفر لهم ولماذا يختار هذا الاسلوب؟.

فكان جوابه (لانه يجب أن يكون مقابل كل خطيئة دم حتى تغفر تلك الخطيئة).

قلت له ومن أسس هذه القاعدة؟ وما الدليل عليها؟ أحب أن

تثبت لي صحة القاعدة أو الفرضية أولاً عن طريق العقل ثم تبني عليها ماشئت من نتائج.

كان ذلك خاتمة أسئلة ونقاش دام ساعة اعتذر بعده بأن وراءه ارتباطاً بالكنيسة وانصرف ولم يدر ما يجيب به وقد بنى كل نقاشه على قواعد موصوفة له للتسليم بها أولاً ودون مناقشة.

وفي جلسة نقاش مع خوري آخر، أكد لي ــ بسذاجة ــ ان على الإنسان أن يرث دين أمه وأبيه حتماً مهما كان دينهما وأن من يخالف دين أمه وأبيه يكون كافراً؟ وبعد أن أخذت منه ميثاقاً غليظاً بأن هذا هو اعتقاده وكان في الجلسة شهود من النصارى ــ وفي بيت أحدهم ــ قلت له اذن فكل من اتبّع المسيح في «عصره» كان كافراً على رأيك لأنه قبل مجيء المسيح كان يعتنق دين أمه وأبيه فلما خرج عن ذلك واتبع المسيح أصبح كافراً... فبهت... وشهد عليه الحضور بأنه طبل أجوف لا يفهم شيئاً ولا يحسن الجدال.

أردت الاستشهاد بالنقطتين السالفتين للتأكيد بأن مفهوم النصارى من تعاليم دينهم أن وراثة الدين دون مناقشة هي الأصل وأن العلاّمة الذي ربما كان يتوقع أنه سيقنعني بالرجوع عن الإسلام بالحجة قد سلم أولاً بفرضيات ما أنزل الله بها من سلطان وبنى عليها كل حججه وأدلته المفحمة من وجهة نظره؟.

كنت أعيش تلك الدوامة من الأفكار المتضاربة، ولما وجدت ان الدين الآخر، (الإسلام)، أقرب إلى العقل من دين آبائي ــ إذا

كان لا بد من التدين بدين ما ـــ وان المفهوم الجديد عن الدين الذي اختلف عن مفهومي القديم عنه أدى إلى احاطة المسيحية بعلامات استفهام وتعجب، عز عليَّ أن أَهجر دين آبائي وأُسْلِمَ لدين مازال عندي يمثل دين الخصوم الذي طالما سمعت ولقنت بأنه دين ليس سماوياً، رغم اعجابي به ورغم الحقائق التي عرفتها عنه، فكان عنادي وتعصبي يغلبان على عقلي واقتناعي وفي نفس الوقت لم استسغ أن استمر في خداع نفسي بالانتساب إلى دين وأنا غير مقتنع به، المسيحية...

رأيت أن اخرج من تلك الدوامة بانكار الدين جملة وتفصيلاً وانكار وجود الخالق سبحانه وتعالى وسولت لي نفسي بأن الدين خرافة، كما كنت أسمع من الأفكار الشيوعية والالحادية، وقد ساعد على استساغة هذا الاتجاه صبوة الشباب والرغبة في التحرر من القيود التي يفرضها الدين.

كان أول ما استهوته نفسي هو الالحاد فأعلنت لنفسي انني ملحد، أستخف بكل ما جاءت به الأديان، فلا حرام ولا حلال... ولا خطيئة ولا حتى عيب... فكل ذلك أصبح عندي من وضع البشر.

كنت أخادع نفسي بالالحاد ولكني لم أتعمد ذلك، فقد كنت مدفوعاً إلى ظني ذلك دفعاً لأنه جاء نتيجة الصراع النفسي الذي كنت أعيشه واعانيه وقد كان قاسياً جداً فكان لا بد من الخروج

من الأزمة بقرار ما... وبحل يريحني من الصراع والتأرجح بين دين عزيز على قلبي، لأني ورثته، والفته، ولم أعد مقتنعاً به عقلياً وبين دين عزيز على عقلي ـ لأنني اقتنعت به ـ ولكنه بغيض إلى نفسي بالوراثة وكان الخيار أمامي بين امرين احلاهما مرّ.

وقد بدا لي اللجوء إلى الالحاد لأول وهلة أنه منقذ من الصراع الذي كان دائراً في نفسي وظننت ـ واهماً ـ أن الذي يكذّب بوجود الخالق يعفى من المسؤولية أو أن الذي يعتقد بأن ليس هناك حساب ولا عقاب في الآخرة كأنه ينجو منه لمجرد اعتقاده بذلك، وكذلك يظن الملحدون، ولكن هيهات، لقد عرفت بأنني ما كنت أخادع إلا نفسي وان الحساب واقع سيشهده المصدقون به والمكذبون به على حد سواء شاؤوا أم أبوا وأن الاعتقادات الفاسدة لا تصلح أن تكون عذراً منجياً لاصحابها يوم الحشر بل لن تزيدهم إلا خسارا.

ورغم أنني اتجهت إلى الالحاد كمخرج فقد كنت صادقاً مع نفسي وجاداً في بحثي عن الحقيقة لذا عزمت على تطبيق ذلك المعتقد (الالحاد) في حياتي اليومية لانني أريد ذلك، أريد تطبيق ما أعتقد بشجاعة.

وقبل أن أشرع في التطبيق فكرت فيما يدور حولي من أمور، وجدت أن تحريم الزنا والقتل والسرقة والاعتداء والظلم قد جاءنا عن طريق الدين فأخذت أتخيل مجتمعاً يعيش في الالحاد على أنه

حقيقة الحياة، فلم أجد ما يمنع أحداً من أحد في عقيدة الالحاد، لم أجد فيها ما يصون حرمات الناس ولا حتى حرمة الأم والأخت ولا دم الجار أو ماله أو عرضه.

وعلى هذا النحو من الافتراضات تصورت مجتمعاً صاخباً مائجاً غارقاً في أقذر الجرائم التي تمجها النفس الإنسانية.

وتشابكت الأفكار في رأسي حتى ضقت ذرعاً بها وخفت من هولها... فأدركت وفي خلال ثلاثة أيام فقط انني مخطىء ولا يمكن أن تكون تلك هي حقيقة الأمر الذي تبنى عليه الحياة الإنسانية.

لم يقبل عقلي خرافة عدم وجود الخالق ولم تطمئن نفسي إلى ذلك الافتراض السيء لانه مغالط للفطرة ومناف للعقل السليم.

البحث عن الخالق عز وجل

كان مجرد رفض فكرة الالحاد يقتضي عكسه، أي وجود خالق، فهذا معتقدي الذي سلمت إليه، ولكن كان عليَّ أن اختبر هذا المعتقد كي يكون مدروساً مبنياً على أساس سليم ومتين من القناعة العقلية واطمئنان القلب.

أدركت أنه لا بد من وجود خالق لهذا الكون فبدأت أبحث عنه ليطمئن قلبي. وقد استغرقت رحلة البحث هذه ستة شهور ابتدأت ببداية الاجازة الصيفية وامتدت إلى ثلاثة شهور أخرى في السنة الدراسية الثالثة في مدارس الأقصى.

كانت صفحة السماء عند المساء هي صفحة التأمل التي اخترتها في بحثي العقلي عن خالقي فبحث كهذا حري بأن يبتعد به عن الميادين الضيقة والمحصورة والمزدحمة بالمؤثرات التي قد تفسده... سلكت ذلك المسلك رغم أن ذرة رماد واحدة كانت كافية للدلالة على وجود الخالق القدير العظيم الحكيم.

نظرت في السماء نظرة الباحث فوجدت فيها ما لم أجد من قبل، فقد افزعني سكونها واتساعها وعظمتها، لم تعد السماء بالنسبة لي ذلك السقف الكبير المرتفع المزدان بالنجوم والكواكب الذي يتسلى الناس بالنظر إليه ومحاولة عد النجوم فيه، اعتصرت فكري

جاهداً لمحاولة ادراك أو تصور حدود السماء، وهيهات... لم استطع طبعاً! أعجبتني تلك الخصائص فيها فأصبحت أجيل النظر فيها كل ليلة.

وكنت اتأمل وأفكر وأقول لنفسي انني اشغل حيزاً محدوداً جداً من البيت، في أحد أحياء مدينة، تقع في بلد هو جزء من احدى القارات التي تشكل بمجموعها ربع مساحة الكرة الأرضية والأرض كلها بما عليها، واحدة من الاجرام التي لا استطيع عدها أو معرفة عددها من أي مصدر أرضي، والتي تعج بها السماء ، أو الجزء البادي لي من السماء، وتملأ هذا الفضاء الرحب الفسيح الذي يبدو لي لا نهائياً، وكثير من الاجرام السماوية يساوي حجم الواحد منها أضعاف أضعاف حجم أرضنا، بل آلاف الاضعاف وربما أكثر.

وكل جرم من هذه الاجرام الكبيرة التي تساوي أضعاف أرضنا، يبدو كأنه نقطة صغيرة في بحر الفضاء، ترى، كم تساوي اذن المسافة بين كل جرم وآخر؟ فلو سطرنا صفحة السماء خطوطاً متراصّة، وفي كل خط منها عدد هائل من مثل تلك النقطة الصغيرة، التي تمثل كتلة عظيمة، فهل نستطيع حساب مساحة صفحة السماء البادية لنا أو تصورها؟ لا يمكن ذلك.

ثم أن هذه السماء هي التي تبدو لنا في الليل فوق الأرض، حسب تصورنا، فماذا يوجد في اللحظة ذاتها في الجهات الأخرى المقابلة للأرض؟.

سماء أخرى؟

نجـــوم؟

مجرات؟

سحــب؟

محيطات عظيمة؟

ثم ماذا أأمثالها وأضعافها من وراء ذلك؟

ثم ماذا؟

أين حدودها؟

ابلا حدود هي؟

كانت تساؤلاتي كلها تدور حول هذا الكون العظيم الرهيب... كان لا بد من التسليم عقلياً بأن للكون حدوداً، وان لم ادركها. ولكن ما الذي يمسك تلك الاجرام؟ ومن يحركها؟ وإذا كان بعضها يمسك بعضها الآخر، فما الذي يمسكها كمجموعة؟ وعلام ترتكز؟.

هذا الكون العظيم، من موجده؟

من أين أتى، ومتى؟

هل أوجد نفسه؟

هل وجد صدفة؟

هل أوجده أحد؟

قلت أنه لا بد لكل موجود من موجد، فهل تكون الصدفة ـــ كما

كنا نسمع ــ سبباً وجيهاً نعلل به وجود الكون؟ فالصدفة كنظرية علمية، يمكن أن تحدث بين أشياء موجودة أصلاً، أما أنها توجد شيئاً من لا شيء فهذا محال والمادة الأولى سابقة بوجودها لحدوث الصدفة الطارئة، إذا لا يمكن تعليل وجود الكون بأنه صدفة.

واستطـردت...

الكون موجود، وله موجد، وهذا الأخير موجود فمن موجده؟ قلت لا بأس، موجد آخر أقوى منه، وهذا الآخر من أوجده؟ ولو افترضنا أن هناك سلسلة موجودين وموجدين على أساس هذا المنطق لكانت سلسلة بلا نهاية ولا بداية، والعقل يحتم على أنه لا بد من بداية ما وهو الموجود الأول الذي لم يسبقه أي شيء غيره والذي أوجد مادة الكون الأولى من لا شيء والذي أوجد كل ما سواه.

هذا الموجود الأول، هو الخالق الذي يتوجب، أن يكون الأول في وجوده وفي صفاته وفي قدرته وفي جوهره وأن يكون كل ما سواه طارئاً عليه ودونه في الصفات والقدرة والجوهر، لا استطيع أن ادرك هذا الموجد الخالق العظيم ولا أن أعرف صفاته ولكن لا بد من وجوده بالصفات اللائقة. قلت: وهذا الموجد الأول، الخالق الأعظم، هو ربي الذي أرتضي أن أعبده.

تخبطت كثيراً في محاولات لمعرفة ماهية الخالق عز وجل وهيئته بحسب ما صورته لي نفسي وأنا أعاني دوامة عنيفة من الصراع وعدم الاستقرار الفكري ورغبتي الجامحة في معرفة حقائق الكون في

لحظات ــ كانت محاولات مضنية باءت كلها بالفشل.

وقد احتملت احتمالات وتصورت تصورات وافترضت افتراضات لا يليق أن أذكرها أو أن تجري على لساني ولكنها جالت في خاطري رغماً عني. كانت كلها تصورات مادية مستقاة من خبرتي الأرضية وما يجنح إليه خيالي، وانّي لي كبشر محدود أن آتي بأكثر من ذلك؟ وكنت أفحص وأدقق في كل افتراض حتى اطمئن إلى رفضه غير آسف.

ولم يقنعني في النهاية أي منها على أنه وصف للخالق، سبحانه وتعالى عما يصفون علواً كبيراً، ولم استطع أن أقول أكثر من أن الخالق الذي أبحث عنه هو القوة العظمى اللامحدودة والمحيطة بكل ما سواها، لا يمكنني أن ادرك له وصفاً كما لا يمكن أن يكون له وصف مما ألفنا من الأوصاف، وهذا الخالق الأعظم لا أجد مانعاً مبدئياً من تسميته (الله).

هدأت نفسي قليلاً، وخف عنائي، واطمأن قلبي إلى هذا التعريف، أو المفهوم، عن الله الخالق، فكان من آكد المؤكدات لدي بأن الله واحد في ذاته، وواحد في صفاته، لا أعرف عنه، حتى ذلك الحين، أكثر من أنه خلق كل ما سواه. ولكن ذلك لم يجب على كل تساؤلاتي، واستمرت رحلة الفكر.

اترانى بعد ذلك، أصدق بأن الله له ابن، أو شريك أو نظير، أو أنه في ثلاثة أقانيم أو أقل أو أكثر من ذلك، أو أنه سبحانه وتعالى له أفعال كأفعال البشر؟.

كان ذلك كافياً لخلع أدنى احترام لمعتقدات النصارى من قلبي. ولكن لم تكن تلك مشكلتي التي تشغلني إذ ذاك وقد أخرجت الموروثات من حساباتي العقلية لاتفرغ لما هو أهم عندي.

ايقنت أن هناك خالقاً، بالمفهوم الذي وصلت إليه بعقلي، فالله هو خالق كل هذا الكون وكل ما هو موجود ما ظهر لنا وما خفي علينا من الكائنات، وهو بذلك قادر على كل شيء بلا ريب.

ثم أخذت اتساءل، هل خلق الله الكون ولا يزال يُعنى به؟ وهل يعقل أن يكون ذلك الخالق العظيم يُعنَى ببشر مثلنا ونحن وكل عالمنا الذي تدركه أبصارنا وأجهزتنا أو تستوعبه عقولنا لا نعدو أن نكون ذرة في ملكه الكبير؟ فما أصغر الأرض بمن عليها، بالمقارنة مع خالق الكون. أوَ يعبأ الله بنا ويجعل لنا يوم حساب وجنة وناراً؟ ما الداعي لذلك كله؟.

ظننت أن الله خلق الكون بحيث يسير من تلقاء نفسه، فبقدرته العظيمة أوجد في كل شيء خلقه قوة استمرار ذاتي فيستمر وجود ذلك الشيء إلى ما شاء الله وإن كان من الاحياء فإلى أن يموت فينتهي وجوده ــ فمن نكون، نحن البشر، حتى يصرف الخالق إلينا بعض اهتمامه؟.

ونظراً للفارق الهائل اللامحدود بين الخالق عز وجل وبين الأرض بمن عليها استكثرت أن يعبأ الله بخلقه.

وبناء على ذلك ظننت أن ليس هناك رسل ولا رسالات ولا شيء مما اعتدنا أن نسمعه من اتباع الاديان السماوية.

وجاء دور الرسل والرسالات. فإذا كان الله لا يعبأ بخلقه ولا يُعنى بهم فمن هم الرسل ـــ عليهم صلوات الله وسلامه ـــ وما هي حقيقة دعواهم.

قلت أن الرسالات التي نسبت إلى الله قد دعت عموماً إلى الخير وأنها قامت بدور هام جداً في حياة البشر وتنظيمها وفي أمن المجتمع البشري وحمايته من الفوضى والاضطراب إلى حد بعيد جداً فقد وضعت الرسالات الأساس لكل القيم والأخلاق والأنظمة المتعارف عليها بين معظم الناس.

قلت أن غاية الرسل هي اصلاح المجتمع الإنساني كل من وجهة نظره، في فترات متعاقبة من الزمان وقد أدوا بذلك دوراً عظيماً بما سنوا من تشريعات لمعاملات الإنسان وسلوكه. وقد برعوا في الوصول إلى غايتهم النبيلة حيث نسبوا التشريعات التي أتوا بها إلى قوة روحية، غيبية... إلى قوة عليا وهي الله وذلك أدعى إلى تمكين رغبة الامتثال لتلك التشريعات في نفوس الناس إما خوفاً واما طمعاً. إذ لو أن الرسل نسبوا تلك القوانين إلى أنفسهم لكان اقبال الناس عليها وقبولهم بها محدوداً جداً إن لم يكن أمراً مستبعداً.

وقد وصفت الرسل ـــ يومذاك ـــ بانهم مصلحون اجتماعيون عباقرة، تميزوا عن غيرهم من البشر ـــ إذ اقدموا على ذلك ـــ بانهم

مفكرون صفت نفوسهم، وعلت هممهم، واضمحلت انانيتهم، فضحوا باوقاتهم من أجل مصلحة المجموعة.

وبذلك فالرسل يستحقون من البشر كل احترام وتقدير وتكريم اعترافاً بالجميل حيث انهم انقذوا المجتمع الإنساني من مهالك أكيدة.

تطور اهتمامي وأنا أفكر واخطط في تلك المرحلة، فبعد أن كان حرصي متركزاً على كشف حقائق الكون والوجود ودور الإنسان في هذه الحياة لأعرف بالتالي دوري أنا ـــ كواحد من الناس ـــ في حياتي، اتسعت اهتماماتي وانتحلت لنفسي حق التفكير في كل ذلك نيابة عن كل الناس لأكشف لهم عن حقائق قد اتوصل إلى معرفتها يوماً ما فأدلهم على خير غاب عن اذهانهم أو احذرهم من شر يتربص بهم.

توقفت عند اعتقادي بأن حال الرسل هو ماذكرت آنفا وكأنني اكتشفت حقيقةً ما، وسألت نفسي: هل هناك مصلحة في كشف هذه الحقيقة للناس؟ فقلت ان الناس إذا علموا أن الرسل إنما ادعوا الرسالات ادعاء لمصلحة البشر ـــ كما كنت اظن ـــ وانهم مصلحون كانت غايتهم اصلاح المجتمع الإنساني فاجتهدوا في ذلك من عند انفسهم، لا شك بأن المجتمع الإنساني سيفقد أمنه من جديد، إذا تبنى الناس هذا المفهوم، بفرض اقتناعهم بدعواي تلك ـــ لان امتثالهم لتعاليم الرسل كان نابعاً من اعتقادهم بأنها من

الله الخالق العظيم. وعليه سيشرع الناس في التخطيط أو إعادة التخطيط لمجتمعاتهم حسب اهوائهم ولن يجد القوي حرجاً في افتراس الضعيف وتحقيق ما يتمناه من مصالح شخصية وما تنزع إليه نفسه من الشهوات على حساب اهدار مصالح الآخرين وامنهم وكرامتهم ممن لا يقدرون على اكتفاء شره أو دفع أذاه.

اذن فلا مصلحة من معرفة الناس بتلك الحقيقة المزعومة والمجتمع البشري على أية حال مضطر إلى دين أو نظام ما لكي ينظم شؤونه ويحفظ امنه وسلامته فلا غنى له عن تشريع ما.

والديانات لها أولوية في ذلك فهي منسوبة إلى الله ــ كما تقدم ــ وتكون ابلغ تأثيراً في نفس الإنسان وأولى بالاتباع لكونها منسوبة إلى مصدر بعيد عن الشبهة، شبهة المصلحة الذاتية... إلى مصدر أقل ما يقال فيه أنه محايد في معركة التنافس على المصالح البشرية، في حين أن الإنسان ينظر إلى القوانين الوضعية نظرة ارتياب وعدم ثقة لأن واضعها انسان مثله متهم بالتحيز لمصالحه الشخصية أو القبلية أو العرقية.

وإذا أصبح انسان ما في مركز السلطة واعطى لنفسه حق التشريع سهل عليه نقض القديم ووضع جديد على هواه، وما المانع؟ إذ انه إنسان والمشرع الذي شرع قبله انسان مثله. وهكذا يأتي من بعده ومن بعدهم مما سيعرض المجتمع حتماً إلى الاضطراب المستمر وإلى التفكك والمطاحنات التي لا تحمد عواقبها إذا قامت أكثر من

فئة تتنازع على السلطة وتدعي حق التشريع والتقنين لتؤمن بذلك مصالحها المتضاربة.

ورغم عدم ايماني، حتى ذلك الحين بأن الديانات رسالات سماوية حقيقة ظلت الديانات عندي أولى من النظم الأخرى الوضعية بقيادة البشر واجدى في تقويم سلوكهم واصلاح احوالهم.

أردت أن انتخب ديناً من بين الديانات المعروفة لدي كي يكون نظاماً عاماً للبشر بحيث يكون فيه تشريع موسع شامل يصلح أحوال الناس ويتمتع بنفس الوقت بميزة ربطه بقوة غيبية عليا. فأي الاديان اصلح لتلك المهمة؟.

واخذت استعرض الاديان حسب تسلسلها التاريخي وبالقدر الذي اتاحه لي علمي المحدود عن الاديان في تلك الايام.

بدأت باليهودية قلت ان اليهودية كما يفهمها اليهود دنيا فقط ولذلك لن تكون صالحة لغايتنا التي تستلزم ربط النظام بقوة روحية فاستبعدتها فوراً من الترشيح لقيادة المجتمع البشري.

وبصراحة اكتفيت بهذا القدر من الاستدلال على أن اليهودية لا تصلح وكأن نفسي كانت تدرك ما تريد في أعماقها فالصراع النفسي الدفين كان بين المسيحية وبين الإسلام فلم تدخل اليهودية في عمق ذلك الصراع.

انتقلت بعدها إلى المسيحية وجدت فيها اسرافاً في الروحانيات

مما ينغص على الإنسان حياته في الدنيا، ثم ــ وهو الأهم ــ لا يوجد فيها نظام اجتماعي واضح المعالم واسع الشمول بحيث يلبي احتياجات الإنسان أو ينظم له علاقاته مع غيره من بني البشر بشكل واقعي فكل ما فيها عموميات ووعظ وارشاد وحث على التخلي عن الدنيا، وفيها الكثير من الغلو في التسامح والتساهل مع المجرمين مما يجعلها غير صالحة لتكون نظاماً لمجتمع بشري بل تضمن الانقراض للمجتمع ــ على فرض تطبيقها ــ بعد فترة زمنية قصيرة.

فلا عقاب ولا حتى سجون في الدنيا... فالقاتل سافك دماء الابرياء لا يقتل أو لا يوجد في المسيحية تشريع يوجب قتله، ولا السارق أو قاطع الطريق المعتدي على أموال الناس يعاقب، وكذا الزانية والزاني لا يعاقبان بشيء اطلاقاً، والشواهد على ذلك من المسيحية بثوبها الذي يعرفه الناس اليوم تتمثل في العبارات الآتية :

متّى ٥ ــ ٣٨ سمعتم انه قيل عين بعين وسنّ بسنّ

(٣٩) وأما أنا فاقول لكم فلا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الايمن فحوّل له الآخر أيضاً.

(٤٠) ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً.

(٤١) ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين.

متّى ٧ ــ ١ لا تدينوا كي لا تدانوا.

فكان تأملي في تلك العبارات ــ ومثلها كثير ــ يصرفني عن ترشيح المسيحية لقيادة البشرية لما في ظاهرها من افراط في

التساهل واللين وتفريط في ضوابط وكوابح السلوك البشري إذ لا تصلح وحالها هذا أن تكون دستوراً عملياً للناس.

أما الإسلام فقد وجدت فيه نظاماً واقعياً للبشر يتضمن كل ما يمكن أن يحتاج إليه مجتمع من تشريع لتنظيم تعامل الناس فيما بينهم والحفاظ على امنهم فذلك يشمل الجوانب المادية التي لا غنى للبشر عنها وفوق ذلك فالإسلام لا يغفل الجانب الروحي ــ الغيبي ــ فهو ينسب إلى الله وفيه وعد بالجنة ووعيد بالنار ونظام عبادات... الخ ففي الإسلام إذن مادة وروح ولكن بنظام ودون اسراف في أحد الجانبين على حساب الآخر.

ولتمتع الإسلام بهذه الخصائص وجدت فيه الشروط التي اشترطتها لاختيار الدين الأصلح وقلت لنفسي لماذا لا يتخذ الناس من الإسلام نظاماً وديناً للجميع؟.

اقتنعت وللمرة الثانية بأن الإسلام هو النظام الأمثل لصلاح المجتمع البشري رغم أنني لم أكن قد آمنت بأي دين على أنه سماوي ولا حتى الإسلام.

وأخذت استعرض مع نفسي أحكام الإسلام في كل ما يجول في خاطري وما ألمس حولي من الأمور مختبراً لقراري الأخير هذا مؤكداً حسن اختياري للإسلام للقيام بتلك المهمة واستغرق ذلك مني أياماً.

وكنت كلما وصلت إلى نقطة اقتناع معينة حول آخر موضوع أطرحه لنفسي للتفكير والتأمل اظن للوهلة الأولى انني فرغت مما

يشغلني ووصلت إلى بغيتي غير انني كنتِ التفت إلى الواقع، كي اطبق ما اقتنعت به، فأفاجأ بأمور جديدة قد بدت أمامي لم تحل الغازها بعد، فيعاودني الشعور بأنه مازال أمامي مراحل لا بد من اجتيازها قبل الاستقرار التام. وكأني كمسافر تائه في أرض مقفرة يبحث عن أعلى قمم الجبال كي يرقاها ويشرف منها على ما حولها ليحدد مساره الصحيح فكان كلما رقى هضبة ظن أنه بلغ القمة فإذا امامه قمة أعلى منها.

خيل الي أن ثورتي قد هدأت وان نفسي بدأت تميل إلى الاستقرار بعد محاولات في حدود طاقتي للتأمل في صفحة السماء وما فيها من الكواكب والنجوم. وكنت وصلت إلى معتقد اطمأنت إليه نفسي نوعاً وهو أن الله موجود وأنه واحد وأن الكون يسير من تلقاء نفسه بفعل صفة قديمة أودعها الله فيه وتركه، وأن الله لم يرسل الرسل إنما ادعوا ذلك (عليهم الصلاة والسلام) لصالح الإنسان... ومن بين شرائع الرسل رشحتِ الإسلام على أنه النظام المثالي لاصلاح المجتمع الإنساني وقيادته.

ثم اتبعت ذلك بسؤال يتعلق بتلقائية سير أو تسيير الكون فقلت: لماذا لا تكون ظاهرة الرسل والأديان جزءاً من الخطة الكلية التي ارادها الله لتسيير هذا الكون، فقدرّ لهؤلاء الرسل أن يزعموا ما زعموه من التوجيهات والشرائع لعلمه القديم بما يصلح حال مخلوقاته؟.

كان ذلك مجرد افتراض مني ولكنه كان في نظري افتراضاً وجيهاً فاستقر اعتقادي على أن ذلك ممكن وجائز وان احتمال صحة ما ذهبت اليه كبير جداً، ولم أجزم بذلك.

ولكني شعرت بأنني اكتفيت من التأمل في صفحة السماء على كل حال وانني أخذت أقصى ما يمكن أن يأخذه مثلي منها كهدف للتأمل وتقليب الفكر في محتويات الكون العظيم فتحولت بتأملاتي إلى الأرض.

هل يعنى الله بنا ؟

أخذت اتأمل في المرئيات والمحسوسات القريبة مني عشت في الواقع الأقرب الذي التصق واحتك به في حياتي اليومية وبنظرة عامة إلى كوكب الأرض أو بالأحرى إلى ما كنت قد تعلمته عن جغرافية الأرض وإلى ما يدب عليها من الحيوان وما ينبت فيها من النباتات وما تحتويه بحارها من الأسماك والمخلوقات.

وجدتني احتاج إلى التأمل والتفكير في الأرض وما عليها ومافيها أكثر بكثير مما بذلته في صفحة السماء.

فكرت في الكائنات الحية على وجه الأرض وفي المياه وكنت ادرك أن هناك ما لاحصر له من الأنواع والأشكال والألوان والاحجام من تلك الكائنات. ولكل كائن دورة حياة كاملة يتغذى فينمو ويتكاثر ويموت وهذا النظام يشمل الحوت والفيل كما يشمل الأميبا (وحيدة الخلية).

لقد استغرقت تأملاتي في الكائنات الحية أياما طوالا فكنت أتوقف كثيراً عند اللفتات المحيرة المذهلة الدالة على عظمة الصانع المبدع.

فكلمة يولد تعني الكثير مما لا يخفى على أحد وكلمة يتغذى معناها في الواقع نظام اختيار غذاء وهضمه والاستفادة منه ولفظ فضلاته..

وكلمة ينمو فيها معجزات مذهلات...

وكلمة يتكاثر تحمل أبلغ معاني الهداية والتوجيه لأمر مقصود وأجل محدود ينتهي بالموت كحقيقة لا مراء فيها.

وكل هذه المعاني تحتاج إلى وقفات وسبحات وتأملات في إبداع فاطر السماوات والأرض.

أما مجتمع الإنسان فهو يشترك مع الحيوان في كثير من مظاهر الحياة إلا أنه متميز بلا شك في أمور تتصل بالسلوك فالحيوان محكوم بغرائزه، والإنسان يتحكم بغرائزه إذا رغب في ذلك.

وجدت عالم الإنسان عالماً رحباً يضم مجموعات هائلة من البشر يتباينون في السلوك مضطرون للتعامل مع بعضهم بمعاملات مختلفة وبالتالي مضطرون إلى نظام ما يحكم سلوكهم وتصرفاتهم ومعاملاتهم فلا يمكن لعاقل أن يتصور مجتمعاً بشرياً يعيش دون نظام وجزمت بأن النظام جزء لا يتجزأ من حياة الناس، وحاجة ضرورية لا غنى لهم عنها.

نظرت في داخل الإنسان فوجدته عالماً آخرا مليئاً بالأسرار، يستوقف الناظر عند كثير من المعالم ليمعن النظر أكثر ويتفكر، فتركيب الإنسان التشريحي وتكوينه جنيناً قبل الولادة ونموه فموته وقدراته وطاقته كلها تذهل العقل.

فكيف أفكر وتجول في خاطري افكار مجرد افكار، معاني لا

جسم لها ولا لون ولا حدود مادية؟

وكيف أميز بين صورتين، بين أمرين، بين فعلين؟

وكيف اتحرك إذ اقصد مكاناً فاندفع نحوه ماشياً أو أريد شيئاً فتمتد يدي اليه لتلتقطه؟.

وكيف أشعر بالبرد، والحر، والخوف، والخجل، والفرح، والأسف؟.

وكيف أنام فإذا أنا كالميت، ثم أصحو، وكيف أرى أحلاماً وأنا نائم؟ وكيف وكيف؟؟ اسئلة تحتاج إلى أجوبة.

نظرت إلى نوعيات الناس من حيث تباين سلوكهم فوجدت منهم من يأتي بأفعال تضر غيره متعمداً قاصداً الضرر لانحراف في سلوكه أو لتحقيق مصلحة على حساب غيره، ومع ذلك قد يفلت من العقاب أو لا يجد من يردعه، ربما لأنه قوي بجسمه أو بسلطانه أو بأعوانه، وفي المقابل هناك اناس يعملون الخير أو ما يفيد غيرهم فيقدمون خدمات ومساعدات لمجتمعاتهم وقد لا يجدون من يجزيهم على ذلك الفعل.

شغلت بتلك التأملات مدة غير قصيرة خرجت بعدها بقناعة أكيدة أيقنت معها أنه لا يمكن لهذا الكون أن يكون قد خلق عبثاً أو انه خلق وتُرك أو أُهمل أو أُغفل.

واخذت اتساءل: من يا ترى أولى باصلاح المجتمع البشري

ورعايته وتنظيمه إذ لا بد له من تنظيم، أهو الخالق أم المخلوق؟ وبمن تتوفر الكفاءة أكثر بالمخلوق أم بالخالق عز وجل؟

فالمجتمع البشري يحتاج إلى نظام كحاجته إلى الماء فالذي أوجد الماء لعلمه بضرورته للناس أوجد بلا شك النظام الذي لا غنى للناس عنه وسبق أن ذكرت افتراضاً ان الله قد ترك أمر تنظيم البشر إلى أنفسهم ضمناً في تلقائية سير الكون أو سير الأمور في الكون والآن أرد على نفسي بأنه لا يمكن أن يكون ذلك ايضاً... لأنه ثبت بالدليل القاطع أن الانسان غير مؤهل لوضع نظام عادل لنفسه وبني جنسه دون محاباة وجور، وتاريخ البشر يشهد بذلك لأن في الإنسان غرائز فطر عليها لا تؤهله للقيام بهذه المهمة على الوجه المطلوب.

ولما كنا نؤمل في الخالق العظيم الذي خلقنا أن يرأف بنا فيما أراده لنا من هذا الوجود فمن المستحيل قطعاً أن يكون الله قد أوكل مهمة تتعلق بالعدل بين خلقه إلى من ليس بكفؤ لها ــ وهو الإنسان ــ فلا بد من تدخل الخالق في هذه القضية الهامة.

وسجلت بذلك قناعة جديدة في عقيدتي:

فكما أن مبدأ العقاب والثواب حقيقة جبليّة فطرية وضرورة لتحقيق العدالة واستمرار الحياة على هذه الأرض فهو ايضاً ضرورة لتحقيق العدالة الكلية، العدالة العليا والنهائية.

فمن سيجزي المحسنين الذين ما وفاهم مجتمعهم حقهم؟ ومن

يعاقب المسيئين الذين يفلتون من العقاب كل يوم؟

فهل يعقل أن الله العظيم الرحيم سيترك الظلم يستفحل بين خلقه ولا يكون بالتالي عقاب للظالمين؟

وما مصير القاتل والسارق وقاطع الطريق والذي لا يراعي للناس حرمة ولا ذمة إن قدر عليهم وهم أضعف منه؟

من للضعيف ينصفه ومن للمظلوم يرد له ظلامته ومتى؟

هل يفرح القوي الظالم بقوته وبتعديه على حرمات الآخرين من الأعراض والدماء والأموال، ويحزن الضعيف لضعفه وقلة حيلته، ويلهو الثري الفاجر بماله وملذاته ويتحسر الفقير لفقره وحرمانه وينتهي كل شيء؟

أيكون مراد الخالق أن تسير الحياة على هذه الصورة وتنتهي عند ذلك الحد؟ وهل تكون نهاية الانسان كنهاية الذبابة والدودة، موته هو نهايته، ثم لا يكون بعد ذلك شيء؟.

لا، والف لا، ان الإنسان لأكرم من ذلك، وان الحياة على هذا النحو لا يتحقق فيها العدل، فلا يعقل ولا يليق بالخالق العظيم العظيم إلا أن يكون عادلاً، فإنه ذو القوة العليا، فهو الأقوى، والأغنى عن كل ما سواه، وهو الذي وضع في كل جزء من الكون ما يشهد له بالحكمة والقدرة وحسن الصنعة، فكيف لا يكون عادلاً؟ فمن يتصف بهذه الصفات يكون حتماً منزها عن الظلم.

ولما كان العدل الكلي غير متحقق في واقع الحياة ولا بد من تحققه بين المخلوقات إذ أنها جميعاً عند الله سواء من حيث أنها مخلوقات له، كان لا بد من وجود ساحة يقوم فيها عدل الله، وأصبح لدي القناعة التامة بأنه سيكون هناك يوم للحساب.. للجزاء للعقاب.. لتسوية الامور وردها إلى نصابها واعادة الحقوق التي أهدرت في هذه الدنيا إلى أصحابها، وحيث أن ذلك لم يحدث بعد فإنه لا محالة سيحدث.

كانت هذه القناعة الأخيرة، مع سابقتها، نقطة تحول كبيرة نسفت افتراضي السابق أن الكون يسير من تلقاء نفسه والمتضمن أن الله لم يكن يعنى بخلقه وأضافت إلى معتقدي مبدأ الجزاء والعقاب لتحقيق العدالة الكلية وأنه سيكون هناك يوم أو موقف يتقاضى فيه الناس في ظل عدالة فوق كل الشبهات. وذلك يعني أن الجنة والنار من حيث المبدأ ضرورة لازمة لاكتمال الصورة الشاملة لهذا الوجود.. لا يمكن أن يكون غير ذلك.. ولا يمكن أن تكون نهاية مسيرة الحياة هو ما نلمسه فقط. اذن فهناك يوم آخر يوم غائب عن حسي المادي ولكنه واقع مشهود في ادراكي العقلي..

ولما تجمعت لدي هذه القناعات الجديدة عادت بي إلى أمر كنت قد استبعدته في البداية وهو حقيقة الدين والرسل وعناية الخالق بنا إذ أن ورود مبدأ الجنة والنار وعناية الخالق بخلقه وضرورة ايجاد نظام أو شرائع لهم وما يلزم ذلك من اتصال ببعض المخلوقين كلها تشير إلى صحة الدين من حيث المبدأ.

فالدين عموماً هو اعلان مبادىء صادرة بزعم من زعمه عن الخالق والدين ذكر الجنة والنار لذا فقد اتفقت مبدئياً بقناعاتي الأخيرة مع الدين على أن الله هو الأولى بتنظيم مجموعة البشر ووضع الشرائع لهم وعلى أن هناك مبدأ عقاب وثواب، أي: جنة ونار، أي: حياة بعد الموت.

والواقع انني احترت في أمر الديانات فلم اقبل ـــ على الرغم من اتفاقي مع الدين على العموميات ـــ أن آخذ التفاصيل التي في الديانات وأسلم بها دون قناعة نابعة من نفسي، خاصة وان في بعض الديانات نعوتاً لله الخالق العظيم التي لم تتفق مع قناعتي الأساسية وهي أن الخالق ليس كمثله شيء على الاطلاق.

فمن أين جاءت تلك النعوت؟

وهل الديانات بشكلها الذي نعرفه صادرة فعلاً عن الخالق؟

وهل هي نقية كما صدرت؟

وكيف كان اتصال الخالق بالمخلوقين؟

التعرف على صفات الله بالعقل

قلت ان الديانات ذكرت صفات وأوصافاً لله تعالى؟

أمّا الصفات فكان أمامي وسيلة للتحقق منها أو من معظمها بنفس طريقتي التي سلكتها في الاستقراء والاستنتاج وكان في مقدوري أن اقنع ولو نفسي بوجاهة تلك الطريقة ومدى الاعتماد عليها.

أمّا الأوصاف فمن ذا الذي رأى الله الخالق العظيم المحيط بكل ما خلق وأخبرنا بذلك؟ ليس ثمة وسيلة لقياس ذلك أو التحقق منه.

فهل ما ورد في الديانات صحيح كله أو بعضه؟ هل يستسيغه العقل ويصدق أنه من الله.

كان لا بد لي من التدقيق في الامر رغم مشقة الطريق، كنت مضطراً لمواصلة البحث حتى أحسم الموقف وأريح نفسي مما كانت تعانيه من عدم الاطمئنان لعدم وصولها إلى بر الامان.

وفي سبيل التحقق عقلياً من الصفات، قلت ان المصنوع يدل على بعض صفات الصانع والاولى أن يدلنا المخلوق على بعض صفات الخالق. ولا شك ان الصانع لمجرد كونه صانعاً يتفوق على أي شيء يصنعه في جوهره وقدرته وعلمه وكان أقرب مثل ذكرته في تلك السويعات هو: الكرسي والنجار. فالكرسي جماد، وتكفيه هذه

الصفة، فلا حياة ولا حركة ولا تفكير ولا أي شيء يحسب له أو يعد من فضائله وكل فضيلة فيه من جمال ومتانة وتناسق تعود إلى صانعه «النجار». فالنجار هو الحي العاقل الذي يميز ويتحرك ويفكر ويبتكر ويستطيع أن يفعل الكثير إذ أنه انسان ونكاد نجزم بأن لا مجال للمقارنة والتفاضل بين الكرسي وصانعه النجار لعظم الفارق. فكيف بصانع الإنسان بل خالق الكون مع فارق التشبيه؟.

والنجار إذ صنع الكرسي هو حي وجد جماداً موجوداً أصلاً فاستعمل عقله وجسمه وأدوات ملائمة فقطع الخشب إلى قطع متناسقة وركب منها الكرسي تشكيلاً لمادة أو تحويلاً ظاهرياً لها من شكل إلى آخر فقط. ومع ذلك فإنه يحظى بكيل الثناء عليه إذا ما أتقن صناعة الكرسي وكلما كانت صنعته أدق وأجمل كلما استدل على ملكات أو محاسن في ذلك النجار البارع إذ أن مدى اتقانه لعمله يشير إلى مدى تمتعه بصفات حميدة من عقل وذوق وحسن تدبير.

أما الخالق العظيم ــ سبحانه وتعالى ــ حسب معتقدي الذي وصلت اليه في تلك المرحلة من رحلتي فموجود واجب الوجود حي دائم الحياة خلق السموات بما فيهن من العدم بلا مادة أولى ولا أداة مساعدة فهو خالق لا مجرد مصنّع أو مشكّل لشيء موجود أصلاً إنما هو الذي أوجد من لا شيء كل شيء وفطره كيف شاء.

وإذا ما تفكرنا في ما تدركه حواسنا من مخلوقات الله وجدنا

السموات العلى عظيمة فندرك أن خالقها أعظم وأعظم مع الفارق الذي لا يطاق تصوره أو ادراك مداه بعقولنا.

وفي الركن الذي اتخذته لساعات تأملي في صفحة السماء كان أمامي شجرة ليمون، ويقابلها شجرة رمان فكرت في الفرق بينهما وأسبابه... تواردت الأفكار على خاطري. فكرت في التفاح والبرتقال مثلاً وغيرها من البذور قد تزرع جميعها في أرض واحدة وتتغذى من التربة ذاتها وتسقى بالماء ذاته وتحيط بها الظروف المناخية ذاتها... وتنمو فإذا بها أشجار ونباتات تختلف كل عن الأخرى بالحجم والشكل والثمر واللون والطعم.

ونظراً لتشابه الظروف والمؤثرات الخارجية في انبات تلك البذور كان لا بد أن تكون الخصائص التي وجهت كل بذرة إلى وجهتها المخلوقة لها ـــ كامنة في ذات كل بذرة، سبحان الله ـــ بذرة صغيرة تضم داخلها جهاز توجيه بهذه الدقة وهذا الاتقان؟ ان في ذلك لقدرة وحكمة ورحمة فالله قدير حكيم رحيم، ففي السموات والأرض وما فيها من انسان ونبات وفي كل زاوية من هذا الكون بل في كل قطرة، وبذرة ورملة دلالات رائعات على عظمة خالقها وانه سبحانه وتعالى له الصفات الحسنى والمثلى فهو القدير الحكيم الرحيم.

وبالتأمل والتفكر في مخلوقات الله استنتجت صفات لِله كثيرة ولائقة، فصدقت ما ورد في الديانات من الصفات التي اتفقت معها

عليها بشهادة حسي وعقلي. أمّا الاوصاف فلم أقبلها ولم يكن لي حيلة في التعرف عليها.

هل اتصل الله بخلقه

وبقي أمر الاتصال بين الخالق والمخلوقين فكيف تم ذلك؟ مباشرة أم بوساطة ما؟

أما عن أمر الاتصال نفسه فلا يحتمل غيره في عقيدتي لأنني جزمت بأن الله أولى بأن ينظم شؤون الناس ومعاملاتهم فلا بد أنه أرسل أو أنزل اليهم نظاماً وأخبرهم بما يجب عليهم وما يريد منهم ويبشرهم على الأقل بأن هناك يوماً يشهدون فيه تمام عدل خالقهم فذلك من الرحمة والعدل والله رحيم وعادل كما استدللت لذلك بالعقل لذا قلت ان أمر الاتصال مفروغ منه ولكن كيف يتم ذلك الاتصال؟

لم استطع ان اخمن وسيلة معينة ملموسة للاتصال بين الخالق والمخلوقين لانني لا أعلم عن ذات الله شيئاً ولكن التأمل في صفات الخالق ومنها القدرة التي ما بعدها قدرة تجعل أمر الاتصال ميسوراً.

وفي سبحات طويلة كنت أتأمل وأقول لنفسي ترى لو اضمرت في نفسي شيئاً أتراه يخفى على الله؟ ولو أردت ابلاغ خالقي امراً ما اتراه لا يسمعني؟ ولو تذللت اليه واعلنت ضعفي أمامه واحتياجي له وطلبت منه أمراً اتراه لا يحقق مطلبي؟؟؟

وكانت اجاباتي لنفسي تؤكد بان الله منزّه عن أن يكون لا يسمع

أو لا يرى أو يعجز أو يبخل فكلها خصائص يستحيل فعلاً أن تكون في من هذا خلقه وهذه صنعته في الكون.

فكان عندي رجاء بأن يجيب الله دعوتي إذا أراد ذلك وان لم يرد فلن يكون ذلك عن عجز منه سبحانه بل لسبب آخر. المهم انه حتماً يسمعني ويعلم ما اطلبه أو اضمره ولو لم أقله بلساني.

وكنت أدعو الله مخلصاً أن يهديني إلى الحق وإلى الإيمان الصحيح.

عندها لم تعد كيفية الاتصال تحيرني وقلت ان الذي خلق كل شيء من لا شيء لقادر على أن يتصل بمخلوقاته بوساطة يعرفها هو ويحددها وما أسهل أن يوحي الله إلى انسان ما بما يشاء ويفهمه ما يشاء بمجرد ارادته لذلك.

لقد صدقت دعوى الدين أو الاديان السماوية عموماً من اتصال مع الخالق ووحي ونبوة وشرائع ومعاد إلى الله وقلت اذن فالله أوحى لمن اصطفى من عباده وعلمهم الدين.

ولكن كتب الأديان التي بين أيدينا والتي جاءت بتلك الدعوى متناقضة، لذا فقد رفضت ضمنياً مجرد التفكير في انها كلها صادرة عن الله لاستحالة ان يصدر هذا التناقض عن مصدر عاقل واحد فكيف يصدر عن الخالق المنزه عن كل نقص؟ وكنت أعرف قدراً لا بأس به من التناقضات وحكمت على الاديان بالتناقض من مجمل ما

عرف عنها من خلاف فهذا هنا حلال وهناك حرام والله عند البعض ثلاثة وعند البعض واحد فقط.

لم يخطر ببالي حتى ذلك الحين مسألة التحريف في التوراة والانجيل ولم يكن القرآن الكريم مصدراً معتمداً لدي حتى أقبل مجرد أخباره بان تلك الكتب قد حرفت وكانت طريقتي في الاستدلال دائماً عقلية.

لذا ظننت أن هناك ديناً واحداً صحيحاً وما عداه سيكون باطلاً وقررت أن ابحث عن هذا الصحيح وأرفض الباقي. وشرعت في قراءة الكتب الدينية، وقصرت ذلك على التوراة والانجيل والقرآن لان دليلي في الفرز والتمحيص هو عقلي وما توصلت اليه من القناعات والاعتقادات مسترشداً بالاستدلال والاستنتاج العقلي. وكنت اعتقد بوجود الله الخالق العظيم الواحد القيوم (الذي يُعْنَى بخلقه) وله الصفات العليا وأننا لا ريب مبعوثون وان الله اتصل بخلقه، وكان معتقدي هذا مجمل دون ما التفات مني الى التفاصيل لعدم قيام الدليل لدي عليها حتى ذلك الحين.

وكانت المباديء الأخرى غير الديانات السماوية لا تعترف بهذا لذلك استبعدتها من البحث ونصبت ميزان المقارنة بين الديانات على أساس ما تقوله في الله.

البحث عن الله في اليهودية

بدأت بالتوراة وأخذت أبحث عن الله فيها وأتعرف على مفهوم اليهود عن ربهم وأورد فيما يلي بعض ما توقفت عنده من نصوص التوراة وأولها سفر التكوين يحكي قصة خلق الله للكون فيقول الاصحاح الأول من سفر التكوين:

(١) في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور انه حسن وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

(٩) وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ودعا اليابسة أرضاً. ومجتمع المياه دعاه بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن.

(١١) وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمرا كجنسه بزره فيه على الأرض. وكان كذلك. فاخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً.

(٢٤) وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها. بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها. وكان كذلك.

(٢٥) فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله أن ذلك حسن.

(٢٦) وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الارض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض.

(٢٧) فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلق. ذكراً وانثى خلقهم.

(٢٨) وباركهم الله.

(٣١) ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً. وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً. اهـ.

رأيت في ذلك نفياً صريحاً لصفة العلم المسبق (القديم) عن الله فكان ذلك اتهاماً لله سبحانه وتعالى بأنه لم يكن يعلم حسن النور مثلاً من قبحه حتى خلقه فإذا هو حسن، وكذلك بالنسبة لبقية ما خلق فقلت ان هذا لا يليق بجلال الخالق عز وجل.

وفي الاصحاح الرابع قصة تقبل الله قربان أحد ابني آدم وعدم تقبله من قايين (قابيل) الابن الثاني لآدم... وبعد أن قتل أخاه :

(٩) فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك فقال لا أعلم.
أحارس أنا لأخي. اهـ.

وتتضح من العبارات السابقة بعض ملامح الصورة التي يرسمها اليهود لربهم، ففي الوقت الذي لم يكن فيه من بني الإنسان الا ذلك الشخص قايين وأبوه وأمه، خاصة بعد قتله أخيه، يقف من ربه ذلك الموقف، فيكذب عليه ويتبع ذلك بسؤال انكاري أحارس أنا لأخي؟ وفي ذلك ان الله في نظر الكاذب ستنطلي عليه الكذبة حيث أنه لا ولن يعلم الحقيقة، ثم وقفة الند للند بقوله أحارس أنا لأخي؟ وقد تكرر أمثال هذا في التوراة.

وفي الاصحاح الخامس :

(١) هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله.

(٢) ذكراً وانثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق.

كما تقدم في الاصحاح الأول :

«٢٧ فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم».

وهذا واضح بأنه وصف للإنسان على أنه شبيه لله ويعني ذلك أن الله (في نظر من يؤمن بهذه التوراة) كالانسان وعلى شبهه وصورته. تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً.

آلله الخالق العظيم كالإنسان المخلوق بيدين وأرجل وآذان وأعين كأعضاء الإنسان؟ كانت تلك دعوى التوراة في الله وهي دعوى مقصودة على حقيقتها وظاهرها وليست مجازاً لغوياً لأن الشواهد التي تؤكد ذلك في التوراة كثيرة أورد بعضها فيما يلي :

فقد تقدم موقف قايين من ربه كما تصوره التوراة وهو موقف الند للند.

وفي الاصحاح الثالث: بعد أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهيا عنها:

«٢٢ وقال الرب الاله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضاً ويأكل ويحيا إلى الابد».

قد صار كواحد منا...؟ في العلم ...؟ في معرفة الخير والشر؟ وهذه تتمة للمشابهة في الظاهر.

وفي الاصحاح السادس، دون سابق تمهيد أو اشارة إلى ابناء الله وبنات الناس فوجئت بما يلي:

١ ــ ٨ وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات. أن أبناء الله رأوا بنات الناس انهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الابد. لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. كان في الأرض

طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم. ورأى الرب أن شرّ الإنسان قد كثر في الأرض وان كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض ــ وتأسف في قلبه. فقال الرب أَمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لانني حزنت أني عملتهم. اهـ.

كان عدم التسلسل المنطقي أو القصصي في سرد تلك الأخبار وترك فجوة واسعة بين الاصحاحات ١ ــ ٥ وبين الاصحاح السادس مزعجاً لي للغاية. وكان ذلك يوحي بنقص في توفر المعلومات لذلك المصدر ــ التوراة ــ مما يوهن الثقة فيه.

فكرت في أبناء الله، من هم؟ وبنات الناس هنا يردن لأول مرة بهذا اللفظ فأي ناس وأي بنات لهم وأي أبناء مزعومين لله؟ ألله ذرية كذرية آدم؟ وليس ببعيد على من يصف الله بأنه كالإنسان أن يقول على الله كلاماً كبيراً كهذا.

وعدت إلى الصفحات أو الاصحاحات السابقة لتلك المقالة فلم أجد أي أثر لابناء الله ولا أي تلميح إلى اتخاذ الله ذرية مخصوصة وأنه أسماهم أبناء الله حتى ولو على سبيل المجاز.

وذلك يدل على أن كون الإنسان على صورة الله حقيقة لا مجرد مجاز في نظر التوراة لان اتخاذ أبناء الله من بنات الناس نساء لهم

ودخولهم بهن وأكثر من ذلك أنهن ولدن لهم أولاداً كل ذلك يعني انهم من طبيعتهن ومن جنسهن وعلى صورتهن ــ وعليه فالله في نظر التوراة ــ وهو أبو الابناء المزعومين ــ أيضاً على صورة البشر حقيقة، فتعالى الله عما يصفون.

كما أن ما تقدم فيه الدلالة الواضحة على نفي صفة العلم المسبق عن علام الغيوب وكأنه خلق الإنسان مجرباً ولم يعرف عاقبة خلقه مسبقاً فكانت العاقبة تدعو إلى الأسف والحزن مما دعا الله لمحو جنس بني آدم عن الأرض ندماً على خلقهم ــ (لا عقاباً على طغيانهم) ما عدا نوح ومن معه ممن رحمهم الله.

ولما كان ميزاني في البحث يعتمد على ما تقوله الاديان في الله عز وجل اكتفيت بهذا القدر من التوراة، ففي الصفحات الأولى التي صدّرت بها التوراة وجهت اتهامات لله بصفات نقص ونفي صفات كمال وكان في ذلك ما يكفي لصدي عن الاستمرار في القراءة والبحث في التوراة.

وقلت ان الله الذي اعتقد وجوده وأبحث عنه ليس بالاله المزعوم في التوراة وعليه فقد حكمت ــ آنذاك ــ على التوراة بأنها ليست كتاباً سماوياً ولا تهدي إلى الدين الصحيح لان ما ورد فيها مخالف لما يقبله العقل.

وظننت أن الديانة اليهودية ليست سماوية على الاطلاق.

البحث عن الله في النصرانية

واقتضى التسلسل التاريخي للاديان السماوية ان انتقل إلى الاناجيل التي تمثل ــ لدى النصارى ــ الديانة النصرانية، ديانة سيدنا عيسى عليه السلام.

في بداية الأمر لم أشعر بحاجة إلى قراءة الاناجيل كما فعلت في التوراة. ذلك لانني كنت قد تعلمت وتلقنت الكثير من مفاهيم النصرانية من المدرسة والبيئة. وكنت اعلم ان التوراة في عقيدة النصارى جزء من ديانتهم بل هي أصل الديانة وإنما جاء المسيح ليتم الناموس لا لينقضه. واعتماد النصارى على التوراة كأصل لديانتهم كان كافياً لرفضي للنصرانية تبعاً لرفضي للتوراة ولكن ذلك لم يخطر لي ببال.

لذا فقد أخذت استعرض ما أعرفه عن النصرانية وكان يهمني كما اسلفت أن ادقق في مفهوم الدين عن الله أولاً وقبل كل شيء فلم يكن يهمني في تلك المرحلة ان ابحث عن الفرعيات أو التفاصيل بل في الاصل فقط.

قلت ان من النصارى من يعتقد بأن الله تجسد في المسيح الإنسان فهو الله بقالب بشري وان له طبيعتين لاهوتية وناسوتية. ومنهم من يعتقد بأن المسيح هو ابن الله بالروح أي ان روح المسيح جزء من روح الله (الأب) لا يتجزأ فهو اله من اله.

وملخص عقيدة النصارى في الله كما تعلمناها من الكتب موجود في ما يسمى عندهم «فعل الإيمان» يقول :

نؤمن باله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لا يرى. وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور. اله من اله. نور من نور. اله حق من اله حق. مساو للآب في الجوهر...الخ.

ويقولون ان الله واحد في ثلاثة اقانيم هم الآب (الله) والابن (الله) والروح القدس (الله) وهؤلاء الثلاثة. هم الله كيف؟ هذا هو سر الثالوث الأقدس الذي لا يستوعبه عقل بشري لانه فوق مستوى ادراكه.

فكرت في هذه المفاهيم عن الله وهذه الاسرار والرموز والتناقضات. آلله واحد في ثلاثة؟ أإله من إله؟ إله واحد ورب واحد ابن الله الوحيد؟!.

ما هذا؟ وكيف يقبله عقلي وأنا مصر أن تقنعني النصرانية عقلياً بعقيدتها أولاً وهي الأساس ثم تملي علي اسراراً وتحل لي رموزاً، أما ان يكون الأساس نفسه مكنوناً واسراراً فوق مستوى العقل ويجب التسليم به دون أدنى مسحة من عقل أو منطق فهذه دعوى يستطيع كل أحد أن يدعيها بلا دليل ولا برهان ــ ويمكن أن يقوم دين ما يدعو لعبادة أدنى المخلوقات على أنه الخالق وإذا طُلِب إيضاح قيل هذا سر عميق لا يمكن لبشر أن يدركه مهما بلغ من العلم والفهم

لانه فوق مستوى ادراكه ــ فالنصرانية بالتالي غير مقنعة وعلى الأقل لم تكن مقنعة بالنسبة لي خاصة مع إصراري على استعمال عقلي.

وبمقارنة مفهوم النصرانية عن الله مع معتقدي الذي توصلت إليه بعد تأمل عميق وتفكير طويل واقتناع عقلي منطقي أكيد... لم أقبل عقيدة النصرانية.

ولكن هيهات فالحق يقال ان طريقة بحثي في معتقد النصرانية عن الله اختلفت عنها في معتقد اليهود. فبالرغم من دعواي التجرد في البحث وعدم اقتناع عقلي بالنصرانية كانت لا تزال هناك رواسب وتعلقات عاطفية من الماضي كما أسلفت.

فالنصرانية دين آبائي واجدادي وكل أقربائي وكنت بالطبع معروفاً لكل من عرفني على انني نصراني وقد تعلمت النصرانية على انها ديني لمدة عشر سنين في المدرسة وكان عمر انتمائي للنصرانية في ذلك الحين عشرين عاماً، كان سلوكي وعاداتي ومفاهيمي الاجتماعية على الأقل مرتبطة ارتباطاً ــ ولو صورياً ــ بالنصرانية لقد انغرست في اعماقي وكانت جزءاً من تكويني النفسي، ورثتها فالفتها واعتدتها.

لم يكن من السهل ان أمر عليها مروراً عابراً فألقيها خلفي لمجرد أنه خطر ببالي انها غير صحيحة فربما كنت مخطئاً في ذلك الخاطر أو الاعتقاد فقلت يجب عليَّ أن أبحث جيداً وأدقّق في الأمر أكثر.

لاحظت في نفسي عناداً أو مماطلة أثناء بحثي في النصرانية كنت لا ازال مرتبطاً بها ارتباطاً عاطفياً وثيقاً ولم يكن سهلاً تغلب عقلي

حديث الاقتناع على عاطفتي المشبعة ــ ولو بمفاهيم خاطئة ــ بهذه السرعة.

وأقول هنا استطراداً ان مثل هذا الموقف يتكرر في الحياة كثيراً وهو موقف اتخاذ القرار الحاسم في أمر عندما يتأرجح الرأي بين الاقتناع العقلي وبين الارتباط العاطفي بما ألفتْه النفس من عادات ومفاهيم موروثة. فالإلف والعادة وحسن الظن بالاسلاف ووراثة المفاهيم على علاتها بسذاجة كلها تشكل طبقات من الغشاوات والسحب التي تغطي البصيرة وتحجب العقل وتورد ضحاياها المزالق والمهالك.

حتى ان من يقع اسيراً لتلك المؤثرات قد لا يفيق من غفلته ولا يجد فرصة أو حتى حافزاً للتفكير أو اعادة التقويم لأمور جد أساسية، بل مصيرية، في حياته من ذلك ما نشهده من أحوال أناس بلغوا درجات عالية من الثقافة والعلم ولا يزالون يعبدون الابقار والاصنام أو يشركون بالله بشتى أنواع الشرك البغيض وتجدهم من وجهة نظرنا كموحدين يتهاوون في أسفل مهاوي الانحطاط الفكري والبعد عن الجادة ومع ذلك لا يسعفهم علمهم ولا ثقافتهم ولا يجدون من انفسهم أدنى باعث للنظر في صحة ما يعتقدون فيرجعوا إلى فطرتهم أو يحكموا عقولهم لأنهم اسراء لما ألفوا عليه آباءهم فاحسنوا الظن بهم وتعصبوا لمذهبهم حتى انهم لا يرون صواباً غيره وهو الباطل بعينه.

ومثل هؤلاء قلما تجد لديهم استعداداً لتقبل أي نقاش في عقائدهم لانهم يدركون في أعماقهم انهم أخذوها بلا اقتناع أصلاً ولانها مبنية على التقليد بالوراثة فلا حجة ولا دليل لديهم على صحتها سوى انهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك فقلدوهم.

وقد يقول قائل «ان المسلم أيضاً يرث دين آبائه» وهذا حق ولكن المسلم يعتز باسلامه بقلب ثابت لا يعيبه انه ورث الدين فهو مستعد دائماً لاثبات صحة ما يعتقد ودعمه بالدليل العقلي والنقلي وبالحجة والمنطق والعقل والحس والتاريخ وان هذه الميزة الجليلة، لاتوجد الا في الإسلام وهو الدين المقبول عند الله والذي تكفل الله بحفظه من التحريف والتبديل حتى تبقى حجة الله على عباده قائمة إلى يوم القيامة وصدق الله والله أصدق القائلين :﴿انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾.

وتحقيقاً لرغبتي في اعادة النظر في أمر ديني الموروث شرعت في قراءة الأناجيل قراءة الباحث، فكنت أجد في العبارة التي قرأتها مرات شيئاً جديداً كأني لم اسمعها أو اقرأها من قبل.

كان أول أمر اصطدم به هو عنوان غلاف الأناجيل وهو (كتاب العهد الجديد لربنا ومخلصنا يسوع المسيح) وكم رأيت هذا العنوان من قبل فلم يكن يستوقفني ولم يكن يقشعر له بدني بل كنت أمر عليه دون اعارته انتباهاً ولكن هذه المرة شعرت بالامتعاض والاستنكار لهذا التعبير وكيف لا، فقد كنت قد آمنت بالله الخالق العظيم الواحد الأحد الفرد الذي ليس كمثله شيء خالق كل الأكوان

وكل ما سواه مخلوق عبد له فكيف أتقبل مثل هذه التسمية للمسيح عليه السلام على أنه رب... ورغم ذلك قلت لعلها تسمية مجازية فلأقرأ الأناجيل.

وقرأت فإذا بتكرار للمعاني اياها. ان المسيح ابن الله ـــ فالأقوال المنسوبة إلى المسيح في الأناجيل فيها كثير مثل : أبي الذي في السماء، وأبي الذي أرسلني، ونحوها. وفي نفس الوقت يسمي نفسه ابن الإنسان في غير مناسبة ويدعوه شخص بقول أيها المعلم الصالح فينكر عليه ذلك ويقول له «لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله».

ومثل هذا التناقض واضح في الأناجيل بين الأقوال المنسوبة إلى المسيح عليه الصلاة والسلام وبين أقوال رواة الأناجيل أنفسهم فكل راو كتب انجيله على حسب علمه واسلوبه وتقواه ومن زاد أو انقص فذلك في ذمته. ونرى «متّى» يفتتح انجيله بقوله «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داوود ابن ابراهيم» أما «مرقس» فافتتح انجيله بقوله «بدء انجيل يسوع المسيح ابن الله». وعلى أي حال لم يكن يقلقني كثيراً تناقض الأناجيل بشكل عام لأن ذلك أمر معروف وكنت قد استمرأته من قبل. خاصة وان عند القوم تبريرات أو فلسفات لتبرير ذلك التناقض رغم دعواهم بأن كتابة الأناجيل كانت بألهام من الروح القدس. أما الأمر الذي كان يعنيني في تلك الفترة فهو تناقض الأقوال في الله أي في معتقد النصارى في الله وهو بلا شك أمر مختلف فيه فيما بين الطوائف والكنائس المختلفة منذ الايام الأولى

للنصرانية وقبل عام ٣٢٥م الذي انعقد فيه مجمع نيقيه والذي ظهر بعده الخلاف رسمياً وإلى هذا اليوم.

ومهما كتب أو قيل في هذا الأمر فإن أساس عقيدة معظم النصارى اليوم هو ان الله نفسه المسيح أو ان المسيح ابن الله أو انهما مع الروح القدس الله وهو الله أيضاً عندهم ولا فرق، يكونون ثلاثتهم واحداً فلا يكاد يختلف نصراني مع آخر على ان الله هو اب وابن وروح قدس كلهم ثلاثة في واحد إلا القليل النادر.

وكانت في الماضي فرقة نصرانية تقول ببشرية المسيح عليه السلام أي أنه نبي وأصرت على توحيد الاله وتنزيهه عن الشرك ولكنها نبذت بعد انعقاد المجمع المسكوني المشار اليه وظلت الطوائف التي وافقت على جعل الله ثلاثة تقاوم تلك الطائفة حتى انقرضت أو كادت بسبب الاساليب التعسفية التي لا يزال دعاة التبشير يمارسونها ضد الأقليات المخالفة لهم في أماكن تسلطهم إلى يومنا هذا.

وفكرت في فعل الإيمان وهو ملخص العقيدة عند نصارى اليوم وقرأت فيه:

«نؤمن باله واحد...» قلت هذا كلام مقبول عندي.

«وبرب واحد يسوع المسيح» قلت هذا مجاز أو ربما كان مجازاً لغوياً.

«اله من اله» قلت مبالغة في المدح والتعظيم أيضاً، لعله مجاز .

«نور من نور» كذلك.

«اله حق من اله حق» أقرب إلى حقيقة وجدية القصد منها إلى المجاز.

«مساو للآب في الجوهر»... وهنا أسقط في يدي.

فقد لاحظت في نفسي حرصاً على ألا اجتاز النصرانية مادمت قد وصلت اليها وكان في داخلي رغبة خفية في أن أجد مبرراً لتصديق النصرانية كدين للأسباب التي ذكرت آنفاً فكنت اجالد واغالط عقلي وقناعاتي والتمس الاعذار والمخارج لما اقابله من معضلات فيها حتى وصلت إلى «مساو للآب في الجوهر» فقلت أما هذه فلا والله، لم استطع اطلاقاً أن أجد لها عذراً، وانىّ لي ذلك.

فهل المسيح (عليه السلام) مساو لله في الجوهر؟ ليس مشابهاً له بالشكل أو بالصورة والمثال فقط كما زعم اليهود بل مساو له في الجوهر دفعة واحدة؟ لا ولن أقبل بذلك.

وبعد العناد الطويل والمشادة مع عاطفتي وهواجس نفسي قررت احترام عقلي والأخذ بقناعاته فقلت ان الله الذي ابحث عنه في الكتب ليس موجوداً في الانجيل.

وعليه تركت أو أوقفت البحث في النصرانية وأنا معتقد أنها ليست ديانة سماوية ولا يعقل أن تكون صادرة عن الله العظيم لكثرة ما في عقيدتها من الخلل والاضطراب وما لا يقبله عقلي من التشبيهات التي تنم عن محدودية تفكير مخترعيها.

البحث عن الله في الإسلام

وبقى أمامي في جدول التقويم أن ابحث في عقيدة الإسلام وجاء دور الكتاب السماوي الثالث والأخير ﴿القرآن الكريم﴾ .

كنت قد درست عن الإسلام وسور من القرآن الكريم في المدرسة كما تقدم وكنت قد عرفت اجمالاً ان الاسلام يركز على التوحيد ولكن غرضي الآن لا يُقضى بمجرد سماع آية أو قراءة سورة فأنا ابحث عما يعتقده الإسلام في الله بالتفصيل الكافي فازنه بميزاني ثم احكم عليه.

وسورة الاخلاص فيها اجمال ووضوح وتعبر عن العقيدة الإسلامية في الله ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾.

ولو كنت أعرف معاني هذه السورة تماماً لكفتني ولكن يبدو انني لم أعمل عقلي فيها بالقدر الكافي ولم استوعب معناها رغم بساطتها ووضوحها فالتمست المزيد من التفاصيل.

سألت صديقاً مسلماً أن يدلني على كتاب يشرح لي مفهوم الإسلام عن الله، فأرشدني إلى كتاب «عقيدة المسلم» للشيخ محمد الغزالي ــ المعاصر ــ ومما قرأت فيه :

«وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الالوهية فانهم وان

عرفوا الله بطبيعتهم إلا انهم اخطؤوا في الاشراك به والفهم عنه».

﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد﴾ ﴿فاعلم انه لا اله إلا الله واستغفر لذنبك﴾.

وان الخالق لا يشبه شيئاً من خلقه، لا في ذاته ولا في صفاته. ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾. والله أكبر من أن تحيط به عقولنا. أو تستوعب كمالاته اقدارنا... والذات الالهية... هي ذات« لا كالذوات التي يراها الحس أو يتخيلها الوهم».

وغير ذلك كثير مما يكرر ويؤكد تلك المعاني وهو ان الإسلام يؤكد ان الله واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله لا تشبه ذاته الذوات ولا صفاته الصفات ولا أفعاله الأفعال.

وجدت في هذا التنزيه لله ضالتي المنشودة وعرفت ان الإسلام يقول في الله ما يقبله كل عاقل وقد كان ما نقله الشيخ محمد الغزالي عن عقيدة المسلم مطابقاً لما توصلت اليه باستقصاءاتي العقلية الطويلة فجزى الله الشيخ محمد الغزالي خيراً وجعل كتابه ذاك علماً ينتفع به.

جزمت بذلك ان الإسلام هو الدين الصحيح الوحيد الذي يصدق عقلي انه من عند الله عز وجل.

وبدأت انظر إلى الإسلام نظرة جديدة، أصبحت بحاجة إلى دراسته لأفهم المزيد عنه وهو الدين الذي طالما اعتقدت انه غير

سماوي بناء على ما كنت اسمعه من أفواه الحاقدين الذين جحدوا الحق سواء عن علم أو عن ضلال.

هذا الدين الذي أصبحت موقنا أنه الوحيد الذي صدق فيما انبأ به عن الله وجاءنا بأنقى مفهوم عنه تعالى. مما يدل على انه السليم دون سائر الاديان وأصبح بذلك هو المصدر المعول عليه في أمر الدين كله.

أما الديانتان اليهودية والنصرانية فيقول الإسلام انهما سماويتان أيضاً في أصلهما وان موسى وعيسى عليهما السلام نبيان صادقان وان التوراة والأناجيل الحالية قد عبث بها التحريف حتى جاءتنا بصورتها المشوهة التي عليها اليوم.

لذا كان من الطبيعي ان اعدل عن ظني السابق في ان واحداً فقط من الاديان سماوي والباقي خرافي إلى الاعتقاد ــ بناء على تزكية وشهادة الإسلام ــ بأن تلك الاديان الأخرى كانت سماوية قبل التحريف وقد اقتضت حكمة الله تعاقبها وان ما تسلل إلى بعضها من السخف وقول غير الحق على رب العالمين إنما جاء من التحريف أي وضع البشر لا من الوحي ولا من أقوال الرسل.

اخذت استعرض كل ما فهمته عن الإسلام في السابق مما تعلمته عنه في المدرسة نظرياً وعملياً وكم كنت مستريحاً إلى تعاليمه ومعجباً بها وربطت ذلك بما توصلت إليه مؤخراً من الاعتقاد في الإسلام فوجدت عقلي ونفسي مشدودين إليه بقوة.

ارتباك وتردُّد في اتخاذ القرار

وبدات أفكر جدياً في اعتناق الإسلام ولكن يبدو لي انني حتى في تلك المرحلة كنت لا ازال اعاني من رواسب عاطفية قديمة تشدني إلى دين آبائي وقد ادت تلك الاحاسيس إلى ترددي في الاقدام على اعتناق الإسلام وبدأت أثير لنفسي مخاوف وتساؤلات وتجول في خاطري أفكار شتى وكأني بالشيطان قد ادرك جدية قصدي هذه المرة فحشد طاقاته ووساوسه ليحزنني ويثنيني عن عزمي.

بدأت اتساءل... ترى لو أسلمت، ماذا عسى أن يكون موقف أهلي مني؟ سينبذونني من الأسرة وسأتشرد وسأعاني الكثير مما لا طاقة لي به ــ وكنت لا ازال طالباً ــ وسألاقي منهم ما يلاقيه كل خارج عن مألوف قومه ولو كان ذلك المألوف فسقاً وضلالاً ثم كيف يمكنني أن استمر في اسلامي في وسط يحارب الإسلام بشتّى الوسائل وان كان لا يجهر بذلك؟

أخذت أبحث عن مبرر أبرر به خوفي من اعتناق الإسلام، لما قد يترتب على ذلك من عواقب دنيوية وسوست بها نفسي، وأبرر به عجزي عن الالتزام بالإسلام وابحث عن طريق الوذ به فراراً من النتائج الدنيوية المترتبة على اعتناق الإسلام ومن نداء عقلي والحاحه عليّ بالالتزام بالإسلام وبضرورة ذلك لانه هو الطريق الحق

في حين كنت أجبن عن تلبية ذلك النداء القوي.

تذكرت ان الإسلام يعترف بالنصرانية كدين فكان المخرج. فلماذا لا اتخذها ديناً لي؟ وذلك لا يكلفني سوى أن أبقى على نصرانيتي كما كنت ولكن من منطلق جديد لا شرك فيه ولا ضلال. والنصرانية بدت لي في ذلك الوقت أسلم حل أو بديل من حيث تلافي المشاكل. وقلت أرضي عقلي وقناعتي بصحة الإسلام بأن آخذ من النصرانية ما يقره الإسلام منها فقط ــ لانه هو الميزان الحق ــ وبهذه الطريقة لا عقبات ولا عواقب تنتظرني أو تتهددني كما لو اتبعت الإسلام مباشرة.

وجدتها فرصة للانتماء إلى النصرانية والأخذ بما يقره الإسلام منها مرضياً بذلك كل الأطراف المتنازعة داخل نفسي وتوهمت حتى ذلك الحين أنه لا فرق بين اتباع دين أو آخر لأنها كلها من الله في أصلها.

وعدت اتصفح الأناجيل واتمعن عباراتها كنصراني يلتمس هداية من كتابه وكنت كلما أعثر بما لا يقبله العقل أو يتنافى مع المفهوم الصحيح للدين عزوت ذلك إلى التحريف ومضيت.

كنت بلا شك أنشد الدعة والاستقرار والطمأنينة وكنت أبحث عن الحق والحقيقة ولم أجد بغيتي في الأناجيل ولم توفر لي قراءة الأناجيل أية ثقة فيها كمصدر يعتمد عليه لأخذ الدين منه ولم توصلني إلى شاطىء الأمان لأن معتقدات النصرانية التي لم اقتنع بها

كانت تعترض سبيلي وتحول دون وصولي إلى الاستقرار والطمأنينة.

لا مجال هنا لاستعراض كل نقطة وقفت عندها في الأناجيل أو في معتقدات النصارى والتعليق عليها فهناك الكثير من الاضطراب والتناقض أورد طرفاً منها باختصار.

يقول النصارى :«ان المسيح هو الله نفسه وأنه تجسد في شخصية المسيح الإنسان فهو الله بقالب بشري لا ينفصل عن الله الذي في السماء بل هو أو هما واحد» ولا دليل لديهم على ذلك وإنما فلسفة مختلقة من عند انفسهم وإذا كان دليلهم الانجيل فالانجيل لا يعتمد عليه كمصدر موثوق لكثرة ما فيه من التحريف وسيتضح ذلك في النصوص التي سيلي ذكرها.

فالمسيح عليه السلام في الانجيل: تارة «ابن الله» وتارة يرفض أن يدعى صالحاً لانه لا يوجد صالح إلا واحد وهو الله ـــ كما تقدم ـــ وفي انجيل لوقا مثلاً، الاصحاح الثاني:

(٤١) وكان أبواه (أي أبوا عيسى) يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح.

(٤٢) ولما كانت له إثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد.

(٤٣) وبعد ما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم ويوسف وأمه لم يعلما.

(٤٦) وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالساً في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم.

(٤٨) فلما أبصراه إندهشا وقالت له أمه يا بني لماذا فعلت بنا هكذا. هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين.

(٥١) ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما.

(٥٣) وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس.

وفي الاصحاح الثالث:

(٢١) ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً وإذا كان يصلي انفتحت السماء.

(٢٢) ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلاً أنت ابني الحبيب بك سررت.

(٢٣) ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي ... بن ... شيت بن آدم ابن الله.

وواضح من هذا اضطراب التسميات فيقال ليوسف ومريم أبواه، وأمه تقول له هوذا أبوك وتعني يوسف ثم يسمع صوت من السماء يقول انت ابني الحبيب بك سررت وهكذا.

وهنا تجدر الاشارة إلى أن الأناجيل كلها قد اغفلت حياة المسيح منذ بلغ اثنتى عشرة سنة حتى بلغ الثلاثين وهذا واضح في النص المتقدم وكل ما ذكر عن ذلك هو في ٥٣ أعلاه وأما يسوع فكان... الخ...

فهل رواة الأناجيل ليسوا على علم بما تم أثناء ثمانية عشر عاماً من حياة ربهم ومخلصهم على الأرض؟ هل كان مجرد عابد زاهد يعبد نفسه أو أباه لانهما هما الله (مع الروح القدس) ولم يفعل شيئاً يذكر خلال تلك الفترة في حين انهم من وجهة نظرهم نقلوا كل كلمة قالها عندما كان يعلم الناس بعد سن الثلاثين؟ أم ماذا؟

فإن قالوا ان التلاميذ أو الرسل (كما يسمونهم) الذين كتبوا الأناجيل لم يعلموا كيف سارت حياة المسيح في تلك الفترة، فقد سقطت دعواهم بأن الأناجيل معصومة من الخطأ وبطل ادعّاؤهم بأن التلاميذ إنما كتبوا الأناجيل بوحي من الروح القدس الذي حل عليهم ذلك لان الروح القدس لا يمكن أن ينسى أو أن لا يطلع على مثل هذا الأمر كيف وهم يقولون أنه الآخر هو الله نفسه أو الاقنوم الثالث.

وان قالوا أنه لم يعمل شيئاً يستحق الذكر فقد قالوا شيئاً عجباً، فكيف يدّعون ان المسيح هو الله ثم يقولون ان الله قد مكث على أرضنا هذه وفي معابد اليهود لمدة ثمانية عشر عاماً لم يأت خلالها بعمل ولا حتى بكلمة تستحق الذكر؟

وعلى كل فهذا الأمر ذكرته عرضاً الآن فقد سمعت نحوه بعد إسلامي ولم يكن قد خطر ببالي في تلك الأيام وأنا أراجع قراءة الأناجيل.

ويقول النصارى ان اليهود قتلوا الله (المسيح) صلباً، والآنجيل الذي بين ايديهم يؤيد ذلك. ولكن اعتقادهم في سر ذلك هو الأهم، فهم يقولون انه صلب من أجل خلاصنا نحن البشر من خطيئة ارتكبها أبوانا آدم وحواء. فيظنون ان الله العادل الحكيم كان سيعذبنا على ذنب لم نقترفه... على خطيئة آدم وحواء التي انتقلت الينا بالوراثة لولا نزول الاله بصيغة بشرية متمثلاً بالاله الابن (المسيح) إلى الأرض ليصلبه اليهود ويبرأ الناس من ذلك الذنب الذي يسمى الخطيئة الأصلية.

وجدت في ذلك الاعتقاد اتهاماً لله بالظلم إذ أنه بزعمهم كان سيعذب اناساً بذنب اقترفه غيرهم.

والصلب أيضاً يدل على الوسيلة التي يظنون أن الله اختارها لتكفير ذنوب عباده فهو الذي يغفر (ومن يغفر الذنوب الا الله) وهو الذي جاء بنفسه إلى الأرض ــ زعموا ــ ليكون فداء مقدماً اليه ليغفر هو ذنوب غيره وذلك يدل على مدى محبة الله لنا إذ أن الاله المزعوم ترك اليهود ليقتلوه ليكفرّ عن خطايا البشر.

ولست أدري أهو الخالق الذي يخلق القوانين أم أن هناك قوى خفية غيره تملي عليه قوانين لا ارادة له فيها ولا خيار بحيث لا يكون

أمام الخالق القدير وسيلة لمغفرة ذنوب عباده الا أن يقدم نفسه قرباناً لنفسه لأنه مكتوب «ان كل خطيئة لاتغفر الا بدم» فليت شعري من كتب ذلك المكتوب؟ أيكتب الله على نفسه ألاّ يغفر ذنوب عباده الا إذا قدم نفسه قرباناً لنفسه «سبحان الله عما يصفون».

والنصرانية ترتكز على الصليب فهو شعارها ومناط عقيدتها والتثليت والاصرار على الوهية المسيح وصلبه والخطيئة الأصلية بحيث لو جردناها من ذلك لا يبقى من وجهة نظري شيء اسمه ديانة نصرانية لأنها بذلك يكون كل ما يتعلق بالعقيدة فيها محرفاً.

التسليم لصوت الحق

"أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله"

قلت لم تحقق لي عودتي إلى النصرانية أي نوع من الاطمئنان لأني لم أجد لي عذراً واحداً كي اتمسك بها بعد الذي رأيته فيها. ولكن ذلك كان صوت عقلي. أما عاطفتي فكانت لا تزال تقول ان الانجيل عزيز على نفسي وأتمنى لو أجد فيه ما يبرر لعقلي قبوله. وتابعت تقليب صفحات الاناجيل وتأملاتي فيها وقرأت في الاصحاح السابع من انجيل متى النص التالي على لسان المسيح عليه السلام:

(١٥) احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتون بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة.

(١٦) من ثمارهم تعرفونهم هل يجنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا.

(١٧) هكذا كل شجرة جيدة تصنع اثماراً جيدة وأما الشجرة الردية تصنع اثماراً ردية.

(١٨) لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع اثماراً ردية ولا شجرة ردية ان تصنع اثماراً جيدة.

(١٩) كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار.

(٢٠) فإذا من ثمارهم تعرفونهم.

وجدت في تلك العبارات دليلاً قاطعاً على ان الإسلام رسالة سماوية وان محمداً بن عبدالله ﷺ رسول الله حقاً وصدقاً وعليه فكل ما جاء به صحيح.

فالعبارة لاتعني ان كل الأنبياء الذين يأتون بعد المسيح كذبة بل تعني انه سيكون من ضمن الأنبياء الذين يأتون من بعده مجرد ادعياء كذابون فاحذروهم. وسواء النبي أو المتنبي إذا جاء فلن يكتم أمره عن الناس بل سيعلنه ويقول انه نبي فلا حاجة هنا إلى أمثلة تضرب ودليل يعرفون به لو كان المقصود انهم كلهم كذبة لذلك فإن عبارة «من ثمارهم تعرفونهم» لتمييز الكاذب من الصادق منهم لا ليعرفوهم ان كانوا أنبياء أم لا، بل وضرب مثلاً على ذلك الشجرة الطيبة والشجرة الردية وأكّد في نهاية النص على «من ثمارهم تعرفونهم».

وكل ذلك يدل كل ذي بصيرة على ان تلك العبارات تعني حتماً بأن قائلها قصد انه سيكون هناك انبياء صادقون ومتنبئون كذابون وان ميزان التمييز والتفرقة بينهم هو ما يأتون به من ثمار وهي الشرائع والأعمال. ولو كان المقصود انهم كلهم كذبة لكان ذكر «من ثمارهم تعرفونهم» مرتين ومثل الشجرة كله من اللغو والحشو غير المفيد بلا حاجة ولا داعي.

استعرضت الإسلام في حدود اطلاعي المحدود عليه في تلك الأيام وأقول المحدود بالمقارنة بما أعرفه عن الإسلام اليوم ــ ولله الحمد.

وجدت ان العقيدة الإسلامية قد جاءتنا بأنقى وأوضح مفهوم عن الله الواحد المنزه عن النقائص والتشبيهات والمنزه عن كل شرك وقد كان لذلك التوحيد الخالص كل الأثر الطيب في نفسي بل لم اقتنع بغيره إذ أنه اسر عقلي فتلقاه بكل القبول.

وجدت ان الإسلام قد وحّد وجمع القبائل العربية المتناثرة التي ما كانت لتوحدها أية قوة أرضية على قلب واحد كما فعل الإسلام وذلك عمل جليل بالنسبة للبشر أو قل للعرب وقد ترك انطباعاً جيداً في نفسي كاحدى ثمرات الإسلام العظيمة.

ووجدت الإسلام يشرع للناس حسب مقتضيات فطرتهم، يشرع للروح والجسد، ويضمن للجميع حقوقهم بالعدل والرحمة على اختلاف الوانهم وطبقاتهم وجنسياتهم بل وأديانهم. وهو دين يخاطب العقل ويحث على التفكر ويعطي الأدلة.

مع كل تلك الميزات للإسلام لم يكن في وسعي إلا أن أقول ان الإسلام ثمرة صالحة وثمرة جيدة لا تقدر أن تعطيها الا شجرة جيدة صالحة.

فأي نظام أصلح من الإسلام؟ لقد اخترته من بين الاديان قبل وبعد إيماني بها فرشحته لقيادة البشرية إلى الصلاح والفلاح قبل اعتقادي به كدين سماوي ثم وجدت عقيدته الأنقى والأصح وأنه الوحيد الذي قبلت بدعواه في الله.

فالرسول محمد ﷺ رسول صِدْقٍ لانه صاحب الرسالة الأصح

والأنقى يدعم ذلك كل ما ذكرت من الأدلة بالإضافة إلى الدليل النقلي الأخير هذا من الانجيل.

فلماذا لا أتخذ الإسلام ديناً والتزم به؟

ورغم كل الادلة العقلية والمنطقية التي لم تدع لي مجالاً للشك في صحة دين الإسلام فقد كان للدليل النقلي الأخير تأثير خاص في نفسي وكأنه أزاح عن عاتقي حملاً ثقيلاً ألا وهو الارتباط العاطفي بالانجيل والنصرانية.

أدركت ان الذي يؤمن بالإسلام هو مسلم شاء أم أبى لأن اعتناق الإسلام ليس طقوساً ولا شكليات وان مجرد أن يؤمن انسان برسالة الإسلام يعني انه مسلم ويجب عليه ما يجب على المسلمين ولا يبقى له مبرر ولا عذر في اتخاذ غير الإسلام ديناً.

لكن الإسلام أو اعتناق الإسلام شيء عظيم وحدث بلا شك له رهبة في النفس فهو اعلان هام جداً بنقلة كبيرة لا توصف والارتداد عن الإسلام شيء خطير أيضاً وله تبعاته ومن ضمنها القتل للمرتد. فما الذي يعجلني على أمر كهذا؟

قلت يجدر بي أن أتريث وأتروى في الأمر حتى آخذ على نفسي ميثاقاً بأن ما أنا مقدم عليه هو القرار الأخير الذي لا رجعة فيه فسألت نفسي هل أنا واثق مما أنا مقدم عليه كل الثقة؟ وللإجابة على السؤال بصدق وأمانة وشجاعة قلت سأعيد النظر في الأمر من جديد.

لم يشاركني أحد لا صديق ولا قريب في رحلتي الفكرية التي استغرقت عامين وثلاثة أشهر منذ دخولي المدرسة الإسلامية حتى اعتناق الإسلام فلم يكن رقيباً على أفكاري وتساؤلاتي تلك الا الله. لذلك لم أجد أي داع للاستعجال فلا أحد ينتظر مني الاجابة في وقت محدد ــ والأمر بيني وبين ربي فيه متسع.

ولاعادة النظر في قراري قبل الإجابة الحاسمة على السؤال المطروح أخذت اسلسل بما توصلت اليه من اعتقاد وقناعة بالدقة والترتيب فقلت اجمالاً: لقد آمنت بوجود الله أولاً (بالادلة التي ذكرت) وأنه سبحانه خالق كل ما سواه. وأنه واحد لاشريك له ولا ند ولا شبيه وانه له الصفات الحسنى بدليل صنعته في خلقه. وأنه يعنى بخلقه واتصل بهم وشرع لهم وأرسل اليهم رسلاً. وانه حتماً سيكون يوم حساب يتحقق فيه عدل الخالق في خلقه. وان أصح ديانة هي الإسلام وانقى مفهوم توحيد هو في الإسلام للأدلة المذكورة وانني في هذه اللحظة لا زلت أحسب نفسي انني نصراني والانجيل يدعوني إلى الإيمان بالإسلام، والإسلام دين حق من رب العالمين يدعوني لاعتناقه ويجب أن اعتنقه.

وانني واثق من كل خطوة خطوتها بأنها صحيحة ومدعومة بالأدلة الكافية فلا تراجع فيها إن شاء الله والله شهيد على ما وصلت اليه من قناعة ولن يغفر لي تمسكي بخلاف الإيمان الحق بعد ما تبين لي، فلا خيار لي بعد هذه اللحظة وبأي عذر أقابل ربي يوم القيامة إذا لم اسلم فإما الإسلام وإما جهنّم.

فقلت :

«أشهـد أن لا إله الا الله وأشهـد أن محمداً رسول الله»

وانقشعت الغمامة

وانقشعت الغمامة... سبحان الله... لقد تبينت حقيقة موقفي في هذه الحياة وفي هذا الكون وأبصرت طريقي. شعرت بالارتياح التام، هدأت نفسي واطمأنت إلى حد لا أعرف له وصفاً يعبر عنه بالكلمات، وصلت النهاية الحقيقية وبلغت قمة ما كنت اطلبه وأرجوه، وكأن الإسلام بالذات كان غايتي وهدفي منذ بداية الرحلة. كل ذلك حدث في غضون دقائق عقيب اسلامي.

أدركت مبلغ الضياع الذي كنت فيه وإهدار ما مضى من العمر في ظلمات أو سبات عميق فانفلق الصبح وأفقت من الوهم إلى الحقيقة، أحسست بأن كل شيء في نفسي قد بدأ يتغير ويتبلور ويتضح.

لم أسجل انطباعاتي الأولى في حينها ولم احفل بذلك أصلاً، فالموقف ما كان ليحتمل امساك قلم وتسجيل خواطر، كان الموقف أجلّ وأكبر... فقد ادركت الحقيقة. ادركتها وادركتني رحمة ربي قبل فوات الاوان... شعرت بنعمة الله التي أسبغها عليَّ. كانت هبة ومنّة من الوهاب المنّان لا عوضاً عن جهد بذلته أو خير قدمته، والفضل كله لله.

كان موقفاً مذهلاً حقاً ولا يوصف. وكانت تجربة يستحيل أن

يحس بها غير الذي ذاق حلاوتها وأحس بالفارق الحقيقي الهائل بين شعوره الآني في تلك اللحظات وبين شعوره في لحظات سبقت ذلك.

فلو قلت انني كنت كالعجماء وعقلت فجأة فأصبحت آدمياً عاقلاً، ولو قلت انني كنت في ظلمة حقيقية ـ أعمى ـ لا أعرف عما حولي سوى ما يوصف لي أو أحسه بيدي دون إبصار حقيقي فأبصرت فجأة ورأيت كل شيء حولي على حقيقته، ولو قلت بأن كل ما مضى من حياتي كان وهماً وحلماً فافقت منه، لو قلت كل ذلك لما وفيت الموقف حقه من التعبير والوصف.

فسبحان مقلّب القلوب، كيف ينقلب قلب الإنسان بين لحظة وأخرى من حال إلى حال، وما بين الحالين كما بين الأرض والسماء؟.

لقد أحسست بإنسانيتي وبوجودي وأبصرت نفسي. لقد أذهلني الموقف ـ التغير الهائل المفاجيء ـ وكأنني لم أكن شيئاً فوجدت نفسي فجأة وعلى أحسن ما يرام.

وكانت اللحظات الحاسمة التي نطقت فيها بالشهادتين أثناء درس كيمياء وكان المدرس مسلماً غيوراً على الإسلام ويعرف أنني نصراني، وكنت مع المدرس وبقية الطلاب في الفصل بجسمي ولكنهم كانوا في واد وأنا في واد آخر سابح مع أفكاري وتحليلاتي.

فلما نطقت بالشهادتين بصوت لم أقصد الجهر به مع اشارة

بأصبعي لفت ذلك نظر المدرس فظنني قلتها عابثاً أو هازئاً فغضب وقال لي «تأدّب» وكانت كلمة قاسية جداً فرددت على المدرس بحدّة «أنا مؤدب يا أستاذ» فقال أخرج من الفصل، فخرجت... وادركت ان المدرس ــ جزاه الله خيراً ــ كان على حق فليس له الا الظاهر من الأمر وقد عذرته ولم أزد على تأكيدي له بأنني مؤدب وسارعت بالخروج من الفصل عندما أمرني بذلك.

بعد خروجي من الفصل ومع اضطرابي من شدة الفرح بما توصلت اليه شعرت انني بحاجة إلى السكون والخلود إلى الراحة قليلاً، ووجدت نفسي متوجهاً إلى البيت ووصلت البيت، واندفعت داخله وشعوري الجديد يملأ جوانحي فوجدت ان كل ما ومن في البيت قد تغيّر عليَّ فجأة وما تغير شيء من ذلك حقيقة، بل كنت أنا الذي تغيرت وتغير شعوري تجاه كل ذلك.

لم أكن اتوقع أن يحدث قراري الأخير باعتناق الإسلام كل هذه التغيرات في نفسي وفي مشاعري في غضون دقائق قليلة. وتلاشت الهواجس والمخاوف التي كانت تجول في رأسي أصبح لدي من الشجاعة ما يكفي لمواجهة كل الاحتمالات فقد تضاءلت أمام عيني كل القوى الأرضية وكنت واثقاً من أن ما فعلته هو الصواب وهو ما يريده مني خالق الكون العظيم العظيم فأي قوى تخيفني بعد ذلك؟

أصبحت أرى ان أول الاولويات هو أن يهتدي الإنسان إلى الصواب الذي لا شك فيه ولا لبس وأن يحدد هدفه وطريقه إلى

الجنة قبل فوات الأوان وأن التفكير في أي شيء آخر يجب أن يأتي بعد هذا الأمر بالترتيب والأهمية، فاطمئنان الإنسان على مصيره وآخرته والعمل من أجل ذلك ضرورة عاجلة فلا أحد يدري متى يموت لأن موعد الانسان مع انقطاع عمله في هذه الدنيا غير معروف للانسان وليس له علامات ولا بوادر فلا مهلة ولا انذار في نظام الموت الذي هو مصير محتوم على كل حي، فإذا جاء الموت فلا استدراك بعده ولا يفيد الإنسان حسرة ولا ندم فلات ساعة مندم. فأي عمل أولى من العمل للآخرة؟ ومع ذلك فمن الناس من هو سارح في هذه الدنيا غارق فيها لم يلتفت بعد إلى خطورة الموقف وكأنّ الأمر لا يعنيه أغراه حلم الله فتمادى في غيّه.

وقد تملكتني رغبة قوية في الدعوة إلى الإسلام واشفقت كثيراً على أولئك الذين لا يزالون يجهلون حقيقة دين الإسلام ويكتفون بتلقي الاكاذيب والافتراءات ضده والتي يطلقونها عليه بأنفسهم حسداً ثم يصدقونها صامّين آذانهم عن الحق متعامين عنه، أولئك الذين اعتبروا مسألة الدين مسألة تعصب وهمجية وتسابقوا على استقطاب الاتباع لمجرد الكثرة والتباهي في الدنيا فعادوا الإسلام وما دروا أن في الإسلام نجاتهم من النار وأن الإسلام لا يريد بهم الا خيراً إذ يدعوهم إلى الهدى لعزهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة.

ظننت في بادىء الأمر ان المسألة هينة، نسيت أو تناسيت عنادي وتعصبي ومماطلتي في الاستسلام إلى دين الحق، فبعد أن

زالت الغشاوة وانقشعت الغمامة بدا لي الأمر ميسوراً لأن الإسلام دين حق واضح لا مراء فيه والادلة على ذلك لا حصر لها وما على غير المسلم الا أن يطلع على الإسلام فيسارع إلى اعتناقه. هكذا ظننت، لقلة خبرتي في الدعوة، أن المسألة تتم بمجرد بيان لمحاسن الدين الإسلامي.

ظننت أن المسألة مسألة بيان فقط لهذا الحق الواضح الساطع ولكن هيهات، فطريق الدعوة شاق وطويل ويحتاج إلى الصبر وتحمل الأذى لان سلعة الله غالية. وبعد مقارعات ومناقشات مع أصناف من الناس ازددت يقينا بأن ربي سيملأ جهنم من الكافرين وأنه سبحانه سيقول لها هل امتلأت فتقول هل من مزيد وأن ذلك كله كائن بمقتضى عدل الله المطلق وهو القائل سبحانه:

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾. (القلم ٣٦)

فهناك اصناف من الناس قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة ولو جئتهم بكل آية وبرهان ودليل لا يؤمنون فلا غرو أن يكونوا حطباً لجهنم والحجة قائمة عليهم لأن الله أعطاهم عقولاً فعطلوها ولم يستفيدوا منها ومنهم من إن دعوته إلى الحق أخذته العزة بالكفر وظن انك قد مسست كرامته بدعوته إلى الهدى ومنهم من يعتبر الإيمان بالله عزّ وجل والتزام الإسلام رجعية ويسخرون من المؤمنين، فليضحكوا قليلاً فإن وراءهم يوماً ثقيلاً يشبعون فيه بكاء وعويلاً يوم

يقول مالك الملك: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾. (المطففين ٣٤) يومئذ تنكفيء موازين الباطل وتنصب موازين الحق، ويا له من موقف يجعل الولدان شيبا، ويا لها من مفاجأة للغافلين حين يعلمون أن الذين استخفوا بهم في الدنيا واعتبرهم الكافرون رجعيين وساذجين، هم أصحاب الحظوة عند ربهم وأصحاب المنازل العالية والدرجات الرفيعة، قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً، ويجد الكافرون أنهم قد خسروا انفسهم فلا ينفعهم ندم ولا يقبل منهم عذر، وما أمر الساعة الا كلمح البصر وانّ غداً لناظره لقريب.

ربما توقع كثير من القراء أن يجدوا في هذه القصة أحداثاً تدور حول ما لاقاه شخص اعتنق الإسلام من قسوة ومجاهدة وما بذله من تضحيات في سبيل ذلك جرياً على العادة. إذ يذكرنا مثل هذه القصص ببلال وعمار وياسر وسمية وغيرهم من السابقين الأولين رضي الله عنهم أجمعين. خاصة في بلادنا العربية ــ بلاد المسلمين ــ حيث يغلب على الظن أن تنشأ خصومة ما بين المسلم الجديد وبين فئته التي انسلخ عنها في حين تمر قصص مشابهة في مجتمعات غربية مثلاً دون ضجة تذكر.

لقد ركزت في هذه القصة على أسباب اعتناق الإسلام وأغفلت أحداث ما بعد الإسلام لظني بانها تقتصر على الجوانب الشخصية وكنت أريد أن تكون القصة موضوعية أكثر منها شخصية وقد اعتبرت أن الصعوبات التي يواجهها المسلم الجديد والتضحيات التي يبذلها هي زكاة الإيمان وسجية الإسلام، وأن ما واجهته أنا

كان أقل بكثير مما يمكن أن تفتدى به نفس من النار. فالله اسأل أن يشملني برحمته وأن يحتسب لي من عملي ما كان خالصاً لوجهه وأن يتجاوز لي عما خالطه من رياء وسمعة انه سميع مجيب.

لكنني وبعد التأمل في الامر واستعادة شريط تلك الأحداث وجدت أن لها ولمثيلاتها أبعاداً مهمة غير الجوانب الشخصية تبرر الاسهاب فيها فهي تعكس خلفيات فكرية واجتماعية من البيئة التي دارت فيها الأحداث وهذا مهم للغاية بالنسبة للدعاة كي يتفهموا خلفية المجتمعات التي يدعون فيها إلى الله وفيها تنبيهات وعبر للمسلمين الجدد هم في أمسّ الحاجة اليها وقد يكون فيها موعظة للمسلمين وتوجيه لكيفية التعامل مع العناصر الجديدة التي تدخل الإسلام، وقد يحتاج تفصيل الامر إلى كتيب آخر ليس عندي منه الآن إلا النية وشذرات من المذكرات القديمة وتحسباً لمعاجلة الأجل أود أن أورد هنا عجالة في سطور أوجز فيها وباختصار أهم المعالم لأحداث ما بعد الإسلام بشكل عام فأقول:

ان المسلم الجديد أشبه ما يكون بغرس اقتلع من بيئة وزرع في بيئة جديدة بكل ما في المثل من معنى غير أن التربة لا تعادي ما اقتلع منها كما يفعل المجتمع الانساني. فالانسلاخ عن البيئة يعني فقدان الألفة والصحبة القديمة والروابط الأسرية وذلك يجعل الإنسان سائب الجذور متأرجحاً في جو الانتقال إلى حين، فيحتاج إلى اعادة تثبيت جذوره في البيئة الجديدة وتعويضه عما فقده من

روابط ووصلها بعلاقات بديلة مما يتطلب رعاية خاصة من المجتمع الإسلامي.

أما الرواسب الفكرية القديمة فليس من الحكمة تصور أنها ستزول بمجرد النطق بالشهادتين ولا سبيل إلى زوالها الا بالاحلال التدريجي للعقيدة الصحيحة في وعاء الرواسب القديمة نفسه فتطفو وتنقشع خاصة إذا علمنا بان من الناس من يعتنق الإسلام بسبب اقتناعه ببلاغة القرآن أو اعجابه بعدل الإسلام أو واقعيته وبساطته ويسره وروعة التشريع فيه وما إلى ذلك من الأسباب بالإضافة إلى باب التوحيد الخالص الذي هو أعظم ميزات الإسلام وأوسع الأبواب لدخوله. فدخول الإنسان في الإسلام لسبب من هذه الاسباب لا يعني أنه استوعب عقيدة الإسلام وأنه بذلك قد صفا قلبه من شوائب الماضي.

وعملية الاحلال هذه تحتاج إلى الصحبة الخيّرة وحسن التوجيه واخلاص النصح للمسلم الجديد. وانها لفرصة عظيمة للراغبين في الثواب والاحتساب لأن غير المسلم نادراً ما يرغب في سماع محاسن تذكر عن الإسلام لكنه وبمجرد أن يسلم ينقلب كله آذاناً مصغية للاسلام وينفتح قلبه ويتشوف ويتشوق لسماع المزيد عن عظمة هذا الدين القويم الذي ربما أعجبه منه جانب واحد في البداية فكان سبباً كافياً لاعتناقه، وفرصتنا أن نسمعه المزيد ونريه، ونري غيره من سلوكنا عملياً ما يظهر أثر عظمة هذا الدين في تقويم السلوك الانساني ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾.

ومما يواجهه معتنق الإسلام الحرب النفسية الناتجة عن ردات الفعل عند غير المسلمين ومنها التهديد والتضييق والايذاء وأهمها التشكيك في دافع اعتناق الإسلام فلا يدعون تهمة الا ويصبونها على رأس المسلم على انها سبب لاسلامه وتكون عادة من قبيل الأسباب الدنيا لتحقير الدافع مثل «أحب أن يتزوج مسلمة فاسلم» و «أراد الحصول على مصلحة كذا فاسلم» و«أراد طلاق زوجته فاسلم» وما ذاك إلا لابعاد شبح الحقيقة عن أذهانهم وهي أن الإسلام فعلاً هو الدين الحق القويم الذي يجدر بالعقلاء أن يتّبعوه.

ونوع آخر من التشكيك هو تشكيك المسلم الجديد في قبول المجتمع المسلم له ويوسوسون له بأنه سيبقى في نظر المسلمين مسلماً من الدرجة الثانية ـــ ويضربون له الامثال !!

ويحز في نفسي أن اقول ان تقصير المسلمين في رعاية اخوانهم الجدد ودعمهم معنوياً يعطي فرصة أكبر لاعداء الإسلام للخوض في هذا التشكيك، فليتنا نتذكر موقف الانصار من المهاجرين وليتنا نتذكر أن الصدّيق كان كافراً ومثله عمر وعثمان وصهيب وبلال وأبو هريرة وخالد وعامر وعمار وياسر وخديجة وسمية كلهم كانوا كفاراً فاسلموا رضي الله عنهم اجمعين.

فالمسلم الجديد يحتاج إلى صحبة خيرة وبيئة صالحة كي تساعده على تثبيت ايمانه ﴿قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾. وياحبذا لو أنشئت

هيئة أو جمعية، لا يبتغى بها إلا وجه الله، تتوفر على رعاية المسلمين الجدد.

فلو قيل ان المجتمع الإسلامي بطبيعته كفيل باستيعاب مثل هذه الحالات ولا حاجة إلى رعاية خاصة لها فالجواب نعم لو كان المجتمع الإسلامي اليوم متصفاً بصفاته الأصلية، فلم يكن في السابق دور خاصة للرعاية الاجتماعية وقد احتجنا اليها اليوم والمجتمع الأول الذي استوعب من أسلموا بالطريقة الصحيحة لم يعد موجوداً اليوم والمسلمون كأفراد منصرفون عن هذه الشؤون الا من رحم الله فإذا كان معظمنا لا يصرف الجهد اللازم للواجبات الأهم كتنشئة أبنائه على الإسلام أتراه يخصص وقتا لرعاية أخ له في الله؟

ومن هنا آرى بأن واقعنا اليوم يتطلب منا مثل هذا العمل الجليل ان أردنا الأجر والثواب. فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين الجدد قد يحتكون بمن يستعمل الإسلام ستاراً للوصول إلى مآرب أخرى فينجرفون في اتجاهات خبيثة أو عقائد باطلة وباسم الإسلام تأكد لدينا بأن احتضان المسلمين الجدد في محاضن سليمة فيه مصلحة لهم وللمجتمع. ومصلحتهم هي الا يهجروا كفراً وشركاً واضحاً إلى كفر وشرك أشد تحت ستار يسمونه الإسلام ظلماً.

والمحاضن السليمة لا تكون إلا في رحاب التوحيد النقي والسلوك القويم الموافق لما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام عقيدة وعملاً لان النجاة في تحقيق ذلك ولا نجاة أبداً مطلقاً

في غير ذلك مصداقاً لوصف المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم للفرقة الناجية من النار حيث يقول:

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قيل من هي يارسول الله قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم واصحابي». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

لا أقول هذا من منطلق نقص لمسته في رعاية المجتمع الإسلامي لي شخصياً بل على العكس من ذلك أقوله انطلاقاً من تجربتي مع الرعاية الصحيحة وما لمسته من أثر طيب لها، فقد وجدت من فضل الله رعاية فائقة اتمنى أن يتاح مثلها لكل مسلم جديد وقد تهيأت لي ظروف مناسبة كان لها جُلُّ الأثر في تثبيت عقيدتي واجتياز عقبات كثيرة.

فقد وقف إلى جانبي اخوان لي في الله مواقف ايمانية صادقة تركت أحسن الأثر في نفسي وإذ لا يسعني ذكرهم فرداً فرداً فيكفيهم أن ادعو لهم بالغيب بأن يجزيهم الله عني خير الجزاء.

وقد يسرّ الله لي اقامة في المملكة العربية السعودية منذ عام١٣٩٠هـ حتى هذا اليوم فكان لوجودي في بيئة المملكة، دولة التوحيد والعدل والأمن والاستقرار عظيم السبب في ترسيخ ايماني وعقيدتي وتعميق انتمائي للمجتمع الإسلامي لذا فأنني أحب المملكة من منطلق قول الشاعر :

وأحب آفاق البلاد الى الفتى
أرض ينال بها كريم المطلب

ولا غرو فالمملكة منذ تأسيسها قامت على التوحيد والعدل وعلى نصرة دين الله وكان ذلك عن مبدأ وتصميم وفي العسر واليسر كما يشهد القاصي والداني، فما انفكت المملكة العربية السعودية تعمل بكل الوسائل العملية الممكنة على رفع راية التوحيد وحمايته ونصر دين الله واعلاء كلمته وتوفير الأمن والعدل والاستقرار لعباد الله من المواطنين وغيرهم. ولا تزال هذه الحقائق ومآثر كثيرة أخرى تتأكد يوماً بعد يوم لا ينكرها إلا جاحد أو حسود.

والذين يحسدون المملكة العربية السعودية لا يتعدى موقفهم ما قاله الشاعر :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
فالقـــوم أعــــداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلـن لوجههـا
حسداً وبغيـاً إنــه لذميــــم

والأيادي السعودية البيضاء قد طوقت أعناق المسلمين داخل المملكة وخارجها وانني بصفتي واحداً من هؤلاء المسلمين وقد نالني حظ وافر من ذلك إذ أقف عاجزاً عن رد جميل السعودية فلا أقل من ان اعترف لها بالفضل.

هذا واني أدعو اخواني المسلمين بأن يكونوا سنداً للمملكة العربية السعودية بالقول والفعل وأن يكونوا حرباً على من حاربها وسلماً على من سالمها وان يتنبهوا لحقيقة ان أعداء السعودية هم اعداء الإسلام لانها بفضل الله أولاً ثم بفضل المخلصين من ابنائها ملوكاً وعلماء ومواطنين لاتزال موطن الإسلام وحصنه ودرعه رغم أنف الحاقدين والحاسدين وكأني بالسعودية تقول لحسادها:

ما ضرّني حسد اللئام ولم يزل
ذو الفضل يحسده ذوو النقصان

يا بؤس قوم ليس جرم عدوهم
الا تظاهر نعمة الرحمن

وفي الختام اتوجه بالشكر والامتنان إلى مولاي جلالة الملك فهد ابن عبدالعزيز المفدى وإلى الأسرة المالكة الكريمة على حرصهم على رعاية المسلمين والاهتمام بشؤونهم مترسمين بذلك خطى الملك عبدالعزيز رحمه الله ـــ الذي أصبح اسمه علما على المآثر الفاضلة.

وأدعو الله مخلصاً أن يديم على المملكة نعمة التوحيد والإيمان والأمن والأستقرار والعز والرخاء وأن يمكن لحكامها في الأرض بما نصروا دين الله وأشاعوا الأمن والعدل بين عباده وان يعزهم بالإسلام وان يعز الإسلام بهم، انه على ذلك قادر وعلى كل شيء قدير، والصلاة والسلام على محمد الهادي والبشير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب أبو حمزة واصف سليمان الراعي

كان الفراغ منه في شهر صفر من عام أربعة وأربعمائة وألف بعد الهجرة النبوية في مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية.

فهرست الموضوعات